

هذا يومكم الذي كنتم توعدون

بقلم : الحبيب الدريدي

وأي أثر يمكن أن يشهد على الأمة سوى فكرها ؟ وأي معنى أدلّ عليها من عقلها و عبقريتها ؟ وأي رمز ألصق بها من ألوان إبداعها ؟ وأي صوت أجهر من صوت ثقافتها ؟ وأي لسان أفصح من آدابها ؟ وأي حديث أبلغ من فنونها ؟ إذ لا يبقى للأمة بعد أن يخمد تناوشها ويخفت صخبها ويخبر أوارها ويسكن نغمها ويسجو لجها إلا خلاصة عقلها وحصيلة ثقافتها وفكرها .

وانك لا تجد كالأرض التونسية موقلا للفكر المستنير ومهادا للثقافة الجادة ولا كالديار التونسية محتفلا للفنون البديعة ومنتدى للآداب الرفيعة ، إذ الشأن الثقافي في هذه البقاع جوهو أصيل لا عرض زائل وروح أثيل لا شغل دائل ، فيه للناس معاشهم ومحياهم وبه مجراهم ومرسامهم . إليه هفت أنفوس وقلوب وبه أنيطت مهج وعقول .

ألم تر إلى أعياد الثقافة كيف تتابع وتعاقت وإلى أيامها كيف تواترت وتكاثرت فأزدهت ساحاتها وأزادت عرصاتها وعمرت دورها وأترعت قصورها وأضاءت مصابيح بروجها وأنارت قناديل صروحها وأوقدت في هياكلها النيران وعلقت في معابدها الأسدان ، فهذه أيام للصورة وأحاديثها وتلك ليال للخشب وأقاصيصها وهنا احتفاء بالألوان وأفانينها وهناك عميد للكلمة وتلاحينها ، وباتت حياة الناس مهرجانا زاخرا ومنبرا ساخنا حتى أضحت البلاد روحا جذلا وعقلا أريبا وقلبا ثملا وذهنا صقيلا .

ولما كان الله قد قيَّض لهذا البلد الأمين السَّائِس الرَّشِيد
الحكيم والرَّاعِي البصير الحليم فقد وجد أهل الثَّقَافَة ورجالات
الفكر من يحفِّظهم في مسيرهم و يظلمهم في هجيرهم و ينزكهم
المنازل التي تحفظ هيبتهم وتصون درجتهم وألفوا سندا ونصيرا
بوقَّيهم ما هم به أحقَّاء من تقدير و توقير ويسخِّع عليهم ما هم به
أحرَّاء من إكبار وإجلال ، بل لقد صار للثقافة عيد مهيب مشهود
وصار لأهلها يوم عظيم موعود يأتونه من كلِّ صوب بعيد
« وتلقَّاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون » .

وهل يوم أشرف من أن ينسب إلى الثَّقَافَة ويمسي لها صنوا
وقرينا ؟ وهل أمة أعظم من أن تسهب أيَّامها للثقافة خدمة
وسدانة ؟ وهل حدث أجلُّ من الاحتفاء بالثقافة قيمة ومشروعا
في يوم مجيد أثير ؟ يوم يكرِّم الإنسان مبدعا خلقتا ومفكِّرا
بحاثا وأديبا فنَّانا ويوم يحتفل بالفكر عنوان وجود وكشَّاف
دروب وغلاب صغاب وقهار ظلام ويوم يحتفى بالخلق شرط كيان
ومملكة رفيعة وعملا علويا ومجاهدة نبيلة وسبقا وريادة .

ألا فليتبصَّر أولوا الأبواب ولينظروا إلى مهابة الحدث وجلاله
والى بعيد معانيه وعظاته، أليس في تكريم الثَّقَافَة تكريم
للإنسان ولأرقى الأبعاد فيه وأسناها ؟ ثم أليس في الاحتفاء بها
احتفاء بأخطر الملكات فيه وأدلىها على وجوده وألصقها بكيانه
وأمسها بعنصره الرقيق وجوهره : التفكير و الخلق أعني ، فهل
نهضت أمة أو ترقَّت جماعة بغير فكر الإنسان وإرادته وخلقه ؟
وهل نبه شعب أو صحا قوم بغير نخبة من المفكرين وصفوة من
العقلاء ؟

وإنَّ هذا اليوم - لو علم النَّاس - لبناء حضارة وقوام مدنيَّة
وجلاب أمجاد ونحات تاريخ .

وربَّ يوم تدين له أزمان وربَّ عقل تدين به أوطان .

وثائق تاريخية تخصّ تونس بالأرشف عثماني

إعداد : محمد بن الأصفر (المحامي)

لقد امتدّ نفوذ الدولة العثمانية إلى قارات آسيا وأوروبا وإفريقيا (1)، فكانت للإدارة المركزية علاقات إدارية ومالية في حاجة إلى الحفظ من الإندثار .

ومن هذه المحفوظات قد تكونّ الأرشف ، وهي عبارة عن « المسودات والملخصات والصور العينية للأوامر الصادرة وأسا عن التنظيمات المركزية في الدولة العثمانية ، وما يقدمه الوزراء والكلريكيون (أمراء الأمراء) (أ) والولاة والقضاة وأمراء السناجق (ب) وغيرهم من موظفي الرتب العالية خارج استانبول ، وما يقدمه الموظفون المبعوثون من المركز إلى خارج استانبول بقصد السعي إلى حلّ إحدى المشاكل ، وما يقدم من عرض أو إعلام أو «شقة» أو تقرير أو عرضحال (ت) أو غيرها من الأوراق التي تحمل أسماء مشابهة ، فضلا عما يقدمه المواطن العادي من العرائض للسلطة » (2).. ويلاحظ الأستاذان أقطاش ، ونيارق أنّه قد كانت للدولة العثمانية منذ قيامها فكر أرشفي وذلك من خلال النظم التي اتبعتها في تنظيم الوثائق والتي ظلّت إلى يوم الناس هذا، وإنّ منهجها قد اقتضى المحافظة على الوثيقة بصرف النظر عن مدى أهميتها فمن الطبيعي أن تكون لتونس وثائق إدارية وعسكرية ومالية مختلفة بالأرشفات العثمانية بموجب ارتباطها بالسلطة المذكورة .

أولاً :تنظيم الأرشيف العثماني :

إنَّ «دائرة أرشيف رئاسة الوزراء العثماني » لئن تأسَّس يوم 27 فيفري 1982 بمقتضى القرار عدد 4334/8 ، (4) فهي ورث مراحل عديدة عاشتها الوثيقة العثمانية .

والأصل في هذا الإرث وهذه التقاليد الأرشيفية مؤسسة الدفترخانة (ث) . الحافظة لسجلات الأراضي في ولايات الدولة العثمانية وتعيين أصنافها (ج) (5) وكذلك المحفوظات المالية التي كانت تحفظ بمؤسسات مثل الديوان الهميوني ، (5) و(ح) والباب الأصفي (5) و(خ) والباب الدفتري (5) و(د) وهي مؤسسات ظهرت منذ أواخر القرن السابع عشر (5) .

وكانت طريقة الإشياف بسيطة وتتمثل في حفظ الوثائق الرسمية داخل أكياس وصناديق (5) .

أما السبب وراء هذا المنزع إلى تكوين الأرشيف فهو الحرص على إيجاد رصيد من التراتيب (الرسائل الهمايونية) يقع الرجوع إليه عند الإقتضاء... (6) ، فكانَ المسألة تتعلق بتكوين تقاليد سياسية وإدارية يقع الرجوع إليها عند الحاجة ... وكانت السلطة في أعلى هرمها تهتم بالمسألة الأرشيفية ، ذلك ومن الأدلة على المذكرة الصادرة عن الصدر الأعظم (ذ) بتاريخ 12 مارس 1845 ، (6) أو المذكرة الصادرة في عهد السلطان عبد الحميد والمؤرخة خلال سنة 1875 وهي في نفس المعنى (6) .

ثانيا : تونس في الأرشيف العثماني :

إنَّه توجد وثائق في الأرشيف العثماني تخصّ تونس سواء في خانة (الديوان الهمايوني / أقلام الباب الدفتري). أو في خانة (الدفتر الآصفي) أو غير ذلك ...

ثانيا: 1 - مسائل شكلية :

لقد وقع التعرض للوثائق المتصلة بتونس في عدّة خانات تتصل بطريقة تنظيم

الأرشييف العثماني (ر).

فخلال سنة 1913 ، أي قبل سنوات قليلة من انحلال الإمبراطورية العثمانية وقع تصنيف وثائق الباب العالي ضمن أربعة أصناف هي : الإداري ، السياسي ، والحقوق ، والتنوع ... (7) وصنفت وثائق تونس ضمن « القسم السياسي » (8) ، وهو قسم يتعلق بالهارين وبأثارة الإضطرابات والتشكيلات والجمعيات السياسية واجتماعاتها وبالمطبوعات والمذاهب ... الخ . (8)

فالملاحظة الأولى هي أنه في سنة 1913 كانت تونس تحت الحماية الفرنسية فما الذي يجعل الباب العالي يهتم بها ؟

والملاحظة الثانية هي أن سنة 1913 في تونس كانت فترة ولاء للإمبراطورية سواء من طرف النخبة (العلماء التقليديون وحتى العلماء الجدد) وكذلك الطبقات الشعبية ... فمما كانت تخشى الإمبراطورية ؟

وبعد ثلاثة سنوات ، وخلال سنة 1916 ، وقع التخلي عن التصنيف القائم على 4 أصناف ليعوضه تصنيف ذو (9) ثمانية أصناف ، وصنفت وثائق تونس ضمن كرتون تابع لفرنسا ، في خانة المسائل السياسية الفرنسية وهو يحمل رقم : 78 ويضم وثائق عن الجزائر أيضا . (10)

ومن أبواب هذا التصنيف « المناصب والرتب الملكية » (11) وتلطيفات للموظفين (12) و (ز) الخ ...

وإن طبيعة علاقة الولاة (SUZERAINETE) بين تونس والدولة العلية قد أثرت على الوضع الأرشييفي ، إذ أن تونس مصنفة ضمن « الولايات والمتصرفات والولايات الممتازة » (13) تحت رمز (T S) (14) ... القارئ والمعمول به حتى سنة 1839 (15) لتصبح فيما بعد مصنفة ضمن البلدان التي انفصلت عن الدولة العثمانية وأصبحت مستقلة (16) . لتصبح تحمل رمزا آخر وهو الرقم (60) ؛

وهنا يتساءل الباحث وحتى القارئ العادي عن أي استقلال ارتكز هذا التصنيف ؟ طبعاً أن المسألة في حاجة إلى التوضيح تاريخياً ؟

فكيف يعقل أن تكون تونس مستقلة إزاء تركيا سنة 1255 هجرية الموافقة لسنة 1839 ميلادية (15) وهي معدودة ولاية عثمانية سنة 1303 هجرية / 1775

ميلادية ؟

ففي سنة 1295 هجرية ، صدرت برقيات من تونس إلى الباب العالي ، وقد خصّص لها الدفتر عدد 963 بتاريخ 10 رجب 1295 هجرية وتواصل صدور هذه البرقيات إلى سنة 1303 هـ ؟! (17) .

ثانيا : 2 - مسائل جوهرية :

تحتوي خزانة الأوراق تحت العدد (19) ، على معروضات خاصة بوقائع تونس والجزائر وطرابلس ومصالحها (18) ...

وإنّ هذه الوثائق منها ما يعود إلى عهد السلطان محمود الثاني (19) الذي حكم في (1808 إلى 1840 م) كما يحتوي الدفتر «دفتر الباب الأصفي» على وثائق تونسية مسكت بمعيّة وثائق مصريّة تحت الإعداد ، 966 و 967 و 968 تعود إلى شهر محرم 1283 هـ ، وإلى شهر جمادى الأولى 1283 وإلى ربيع الأوّل 1295 هـ (20) وهي مشبّعة بـدفتر العيّنات ، وهي عبارة عن الصور طبق الأصل للوثائق التي حرّرت من دائرة الصّدارة (نسبة إلى الصدر الأعظم) والدوائر والولايات (21) ، على أنّه من الممكن العثور على مسوداتها بأرشفة غرفة الباب العالي (21) . ودفتر العيّنات ، هو من دقاتر «الباب الأصفي» (22) أي «مفر الوزير الأكبر» (22) .

وأخيرا ، فإنّ «قلم ساليانة» هو وثيقة بها حساب الرّواتب السنويّة الممنوحة لمخانات القرم وعائلاتهم ، وتونس مذكورة في هذا الباب باعتبار أنّ واليها (أي الباي) ، ينتفع براتب سنوي مثل ولاية بغداد ومصر واليمن والحبشة والبصرة والأحساء والجزائر وطرابلس الغرب ، وهي رواتب تصرف لهم بعد أن تقوم الدولة بتحصيل إيراداتها ! (23) .

وهذه نقطة ثانية تشير الإستغراب ، إذ المعلوم أنّ ولاية تونس كانوا على العكس يجددون الولاء سنويّاً يبعث الهدايا للسلطان ، ولم نعلم أنّهم كانوا يتقاضون رواتب ؟!

ثالثا : هل أنه لا توجد وثائق أخرى :

إن الكتاب الضخم الذي استقينا منه المعلومات (522 صفحة من القطع الكبير)، لم يذكر إلا هذه الوثائق ، ولا نضن أن علاقة تونس بالباب العالي قد أسفرت عن هذا العدد المحدود من الوثائق الإدارية المختلفة مما هو محفوظا بتركيا . ولعلّه هناك ما يسرّر هذه المحدودية ، فرغم الحرص العثماني على تكوين الأرشيف والوعي بذلك منذ زمن متقدّم ، فإن الإهمال قد يكون تسبّب في ضياع كمية ما من هذه الوثائق ذلك أن مذكرة الصدر الأعظم لسنة 1845 كانت حسما منه لوضع حدّ للتلف الذي أصاب الوثائق (24) كما أن الحريق الذي نشب بالباب العالي سنة 1754 كان قد أتى على وثائق أخرى (25) .

وطبعا فأنّه هناك متاحف وخزانات أخرى باستانبول مثل ؟ « طوب كابي » و « أرشيف السجلات الشرعيّة » و « أرشيف المتحف البحري » (26) ، وغيرها ... بحيث قد تكون وثائق تونسيّة أخرى قد أودعت في واحدة منها ...

وما هذه إلا محاولة ترمي إلى استغلال العلاقات الطيّبة بين تونس وتركيا لجلب نسخ مطابقة للأصل من وثائق تهم تاريخنا وذاكرتنا . وتعتبر جزءا لا يتجزأ منه .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

1- الإحالات

المصدر الأساسي هو كتاب :

تجاني أقطاش وعصمت بنيارق : الأرشيف العثماني - (فهرس شامل لوثائق الدولة العثمانية المحفوظة بدار الوثائق التابعة لرئاسة الوزراء باستانبول - ترجمة صالح سعداوي صالح - إشراف وتقديم : الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي - مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول ومركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية - عمان - الأردن - 1406 هـ / 1986 م .

لذلك نكتفي بذكر رقم الصفحة المأخوذة منها المعلومة دون حاجة إلى إعادة ذكر اسم الكتاب كمصدر وتكون الإحالة بالأرقام ، أمّا الإحالة بالأحرف الأبجدية فهي لشرح مدلول لفظ أو مؤسسة ... الخ .

2 - صفحة : 3	15 - صفحة : 438
3 - صفحة : 37	16 - صفحة : 449
4 - صفحة : 43	17 - صفحة : 306
5 - صفحة : 37	18 - صفحة : 50
6 - صفحة : 38	19 - صفحة : 49
7 - صفحة : 423	20 - صفحة : 251
8 - صفحة : 424	21 - صفحة : 221
9 - صفحة : 78	22 - صفحة : 215
10 - صفحة : 83	23 - صفحة : 25
11 - صفحة : 79	24 - صفحة : 38
12 - صفحة : 80	25 - صفحة : 37
13 - صفحة : 451	26 - صفحة : 3

2 - التعليل :

أ - أمير الأمراء : رتبة لا تتعلق بالعائلات الملكية ، وإنما هي رتبة عسكرية وقد عمل بها في تونس كأعلى رتبة عسكرية ولا تعطى للمدنيين إلا من ذوي الخطط الأكثر ارتفاعا . (انظر أمر 12 جمادى الثانية 1277 هـ / 1861 م) .

ب - السناجق : جمع سنجق ، وهو الراية بما يعني الدائرة والحامية العسكرية (راجع د . المنصف الفخفاخ - موجز الدفاتر الإدارية والجبائية بالأرشيف الوطني التونسي . الوزارة الأولى ، تونس - 1980 . ص 73) ، ومثلما كانت حكومة الباي تقسم البلاد إلى سناجق فأ الإمبراطورية العثمانية تعتبر الولايات ومنها تونس ، سناجق ... بينما المرادف التونسي للسنجق هو الوجع ، أي الحامية ، أو الفيلق أو اللواء الخ ...

ت - عرضحال : كلمة مدغمة ، متكوّنة من كلمتين هما ، (عرض) ، و (حال) ، أي شكاية أو عريضة ، وواضح أنّ تونس تأثرت بهذا اللفظ الإداري باستعمالها للفظ (معارض) (انظر ، المنصف الفخفاخ ، المصدر السابق في مواطن عديدة ،

- معارضين وزارة العمالة ، وزارة التجارة الخ ...) .
- ث - الدفتر خانة : رغم أن تونس قد أخذت نظام التّسجيل العقاري عن الغرب (تورانس مثالا) فإنّها قد أطلقت اللفظ التركي على إدارة الملكيّة العقاريّة ، وهي دفتر خانة .
- ج - طبيعة الأراضي : أصنافها ومنها : الأرض الموات ، والأرض السلطانيّة ، فالأولى معمله والثانية تابعة لبيت مال المسلمين ، فضلا عن أراضي الأوقاف العامّة وأوقاف الرّوايا والطرق .
- ح - الديوان الهميوني : من النّظم العثمانيّة ، وهو المساوي (لمجلس الوزراء) .
- خ - الباب أصفي : مقرّ الوزارة الكبرى في تركيا بداية من القرن 17 .
- د - الباب الدفتري : ما يساوي وزارة الماليّة في الإدارة السلطانيّة العثمانيّة ، وكان في تونس يقوم بهذه الوظيفة الخزندار ، بينما كان آغا بيت المال يقوم تقريبا بنفس العمل فكأنّهما الوزير و كاتب الدولة وقد يساعدهما « قائد الحبيّرة » الخ ...
- ذ - الصّدر أعظم : هو الوزير الأكبر ، أو الوزير الأوّل واليوم يسمى في تركيا (باش باكان) .
- ر - النّظم : هو طبعا مستقلّ عن التنظيم المتوخّى في البلدان الغربيّة .
- وكان استعمال لفظ «التنظيمات» من قبيل الحيلة الفقهيّة تحاشيا لاستعمال لفظ «القانون» ، فلا قانون ولا دستور إلّا «ما أنزل الله» وهو نفس السبب الذي يفسّر استعمال البلاد التونسيّة للفظ «التراتب» عوضا عن استعمال لفظ (القانون) .
- ز - تلطيفات : الحوافز والترقيات والأوسمة التي تعطى للموظفين ، وبالنسبة لتونس فإنّه إذا استثنينا من مكنوا من مراتب التشريف (الباشويّة) و(البكويّة) خلال حرب القرم فإنّه ليس هناك إلّا الباشا باي قد مكن من هذا التشريف (راجع محمد بن الأصفر المحامي - ألقاب التشريف والمراتب العسكريّة وتأثيرها على اللقب العائلي التونسي - مجلة الإتحاف - سليانة - عدد 39 - مارس وأفريل 1993 .

الفراسة عند رعيان الظاهر بين ضرورات المعطى الأيكولوجي وأهمية التنشئة الإجتماعية

بقلم : محمد بالراشد

تقديم :

في كتابه "بدو الأمس وبدو اليوم" (1) Nomades d'hier et d'aujourd'hui أشار بيار أندريه لوبيس وهو أحد أبرز دارسي منطقة أقصى الجنوب الشرقي التونسي إلى جانب كل من أندريه مارشال (A) MARTEL والأديب محمد المرزوقي ؛ أشار إلى أن معرفة الأثر واقتفائه يعدّ نشاطا اعتياديا عند رعيان الظاهر ، حيث لاغربة في أن ينظر هؤلاء البدو إلى الأرض ليعلمك بأن شخصا أو حيوانا مرّ من هذا المكان في وقت محدّد (2) [http://Arch\(2\)](http://Arch(2)) وفي الواقع تعتبر عملية تقفّي الأثر من أبرز خصال رعيان الظاهر التونسي ، ولكن دون أن يعني ذلك أن هذه العملية حكر عليهم لوحدهم ، فقد وجدت عند العرب قديما وكذلك عند سكان استراليا الأصليين وعند القبائل الإفريقية ... إلخ . وهذا النشاط الإنساني الذي لم يلق عناية كافية من قبل علماء الإنسان نجده أيضا عند الحيوان الذي يعتمد على الشمّ في عملية تتبع الأثر ولعلّ أبرز حيوان هو الكلب القادر على قطع مسافة مسيرة ثلاثة أيام رفقة مالكه في ليلة واحدة عندما يكون بمفرده و عندما يستطيع الوقوف على الأثر (3) .

موضوع الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى تناول مسألة تقفّي الأثر من جانبين :
- الرغبة في فهم هذه الظاهرة و دورها في حياة رعيان الظاهر

هذه الظاهرة بدأت في التقلص و التراجع ومن ثمة كان من الضروري الوقوف عندها وعند أسباب تراجعها .

بلغة مغايرة تطمح هذه المحاولة إلى مقارنة ظاهرة الفراسة ، أو بالأحرى ظاهرة اقتفاء الأثر التي كثيرا ما لجأ إليها رعيان الظاهر التونسي سواء في البحث عن حيواناتهم الضائعة و التافهة أو سواء لتبيين و معرفة أثار الحيوانات المفترسة كالذئاب و الحشرات السامة كالأفعى . و بالتالي فان التطرق إلى هذه الظاهرة هو بغاية فهمها هذه الظاهرة ، ومن ثمة الوقوف عند أسباب بروزها ، كيفية تناقلها بين الأجيال و ذلك في مسوى أول و عوامل تراجعها ، وما إذا كانت هذه الظاهرة مرتبطة بتراجع الانتجاع و الترحال لصالح الإستقرار و التخلي عن القطيع .

في معنى الفراسة :

جاء في لسان العرب المحيط لابن منظور « فُرس فلان ، بالضم يفرس فروسه و فراسة إذا حذق أم التليل .. و الفراسة في الخيل الثبات عليها و الحذق بأمرها ، ورجل فارس بالأمر أي عالم به بضمير و الفراسة بكسر الفاء في النظر و الثبّت و التأمل للشيء و البصر به ، يقال إنه لفارس بهذا الأمر إذا كان عالما به » (4) . و جاء في منجد اللغة « فرس ، فراسة بالعين ، ثبّت النظر و أدرك الباطن من نظر ظاهر تفرس فيه ، نظر و ثبّت نظره فيه .. و الأفرس الأصدق فراسة » (5) و بذلك تكون الفراسة دقة النظر و الثبّت ، و من هنا جاء الثبّت و التدقيق في الأثر بغاية اقتفائه أو معرفة صاحبه ، أثر بشري أو حيواني أو حتى طبيعي كأثر السيول وحبّات المطر .

الفراسة عند رعيان الظاهر التونسي :

عرف عن رعيان الظاهر قدرتهم الكبيرة و العجيبة على اقتفاء الأثر . وهم يطلقون على ذلك « قصّان الجرّة » و لذلك تراهم شديدي التعلّق بقراءة الرّسوم على الأرض التي يطؤونها ، ولا غرابة أن يكونوا حريصي لا على معرفة الأثر و صاحبه

بل معرفة حتى توقيت المرور (فجرًا ، عصرا) من هذا المكان أو ذاك .
ومأ لا جدال فيه أن وراء هذا التعلّق الشديد بمعرفة الأثر واقتفائه دوافع موضوعية و
أخرى ذاتيّة .

أ - الدوافع الموضوعية :

لماذا يولي رعيان الظاهر الأثر « الجرّة » تلك العناية ؟ لماذا يشغلون بالهم بها ؟
إن فهم هذا الانشغال يتأتى في الواقع من طبيعة حياة رعيان الظاهر في ذلك
الفضاء فهم مثلاً يحرصون على اقتفاء أثر الحيوانات حتّى يتسنى لهم البحث عنها
عند ضياعها ، وهم يولون التشبّث من آثار القطعان عناية كبرى وذلك حرصاً منهم
على اختيار الفلاة الحصبة لقطعانهم . فوجود آثار للقطعان بمكان ما يعني أن هذا
الأخير لم يعد مرعى جيّداً وعليهم (الرعاة) البحث عن مكان ثانٍ للإنتجاع .
والى جانب ذلك يحاول الرعاة معرفة آثار الحشرات السامة مثل الأفاعي بهدف
الحذر والاحتياط منها وهي نفس الدوافع التي تحثهم على اقتفاء أثر الحيوانات
المفترسة مثل الذئب لما يمثله من خطر على الحيوانات .
لكن هذا الحذر والاحتياط من الحشرات والحيوانات المفترسة يختلف أنواعها ،
وهذا التخوف من ضياع بعض الشياه هل يبرّر كذلك الإعتناء بالآثار البشرية ،
باقتفاء أثر البشر ؟ إن اعتناء الراعي بأثر الإنسان قد نجد له مبرراً في اعتياد
الرعيان التثبّت في الأرض والتدقيق فيها . وبالتالي صار الإهتمام بأثر البشر من
جملة اهتمامات هذه الفئة لكن هذا الجانب الوحيد لا يمكننا من فهم اهتمام الرعيان
بأثر البشر أيّ لابدّ من التطرّق إلى مستوى ثانٍ هو مستوى العلاقات بين البشر
وهي علاقات اتّسمت تاريخياً بنوع من التوتر وسيطرت عليها الغارات إلى درجة
أنّ الجماعات التي كانت تعيش بأقصى الجنوب الشرقي التونسي عمّدت إلى
تشريع هذه الغارات وتوزيع الغنائم مثلما يبرز ذلك قانون العرفيّة (6) . ولهذا كان
منا الضروري الإستعداد والحذر ، ومن بين وسائل الإستعداد والحيلة هذه نذكر تقفّي
الأثر سواء لتبيّن الأخطار المحيطة بالدوار (7) . أو عند مطاردة العدو لاسترداد ما
تمّ اقتكاكه .

إنّ هذا المحيط الإجتماعي كان من الدوافع الموضوعيّة للاعتناء بالأثر ومتابعة
تماما مثلما هو الشأن بالنسبة إلى المحيط الطبيعي . لكن وبرغم أهميّة هذه
الدوافع الموضوعيّة فإنّه لا يمكن الإقتصار عليها لوحدها لمعرفة سرّ اهتمام
رعيان الظاهر التونسي بتقنيّ الأثر ومن ثمة كان من الضروريّ التطرّق إلى
الدوافع الذاتيّة .

ب - الدوافع الذاتيّة :

يطغى على رعيان الظاهر التونسي إلى اليوم ميل جارف لمعرفة ما يحيط بهم
وكشف أسرارهِ . ولذلك كانت معرفة بصمات الحيوان ومعرفة الطريقة التي وطأ
بها الأرض والحشائش من بين أهمّ مشاغلهم اليوميّة . هذا دون نسيان الإهتمام
بأثر الإنسان .

وهذه النزعة إلى معرفة ما يحيط بهم معرفة جيّدة هي التي شجعت هؤلاء
البشر على الفراسة لأنّ معرفة الأثر مثلا تقتضي إلى جانب معرفة نوع الحيوان
الثريّة وطرق تقلّب الأثر باختلاف الأرض التي يسير عليها الحيوان ، فقد لا يجد
متتبع الأثر غير بعض الحجارة قد ابتعدت بعض التشتّلات عن مكانها الأصلي
وذلك في الأرض الصلبة في حين يبدو الأثر كاملا في الأرض غير الصلبة . وهو ما
يستدعي فطنة من الإنسان و لذلك فإن الراعي الذي لا يتمتع بفراسة قويّة لا يعتبر
راعيّا جيّدا وينظر إليه بقيّة الرعاة نظرة دونيّة . أي أنّ الفراسة القويّة هي من بين
مجموعة من الشروط التي يجب أن تتوفر في الراعي إلى جانب القدرة على جبر
الشاة المكسورة ومداواة بعض الأمراض التي تصيب الحيوان .

ولعلّ أبرز ما ظلّ يذكر لرعيان الظاهر في هذا النشاط هو أنّهم بمعرفتهم الجيدة
بأسرار الأثر تمكّنوا من إخفاء أثر المجاهدين بالمنطقة . زمن الاحتلال الفرنسي . عن
قوات الاحتلال عند ملاحقتها لهم وذلك عبر ترمير القطعان على آثار المجاهدين
ومن ثمة يعجز الفرنسيون عن مطاردتهم وملاحقتهم .

لكن يبدو من الضروريّ التساؤل حول من يعلم فنّ اقتفاء الأثر ؟

2 - التنشئة الاجتماعية ودورها في تعليم اقتفاء الأثر :

من الجدير بالملاحظة عند تناول مسألة الفراسة عند رعبان الظاهر التونسي هو أن الفراسة ارتبطت بمجتمع غلبت عليه الأمية وتحديدًا الأمية الأبجدية . ومن ثمة فإن تعلم فن اقتفاء الأثر ومتابعة صاحبه تمّ في فضاء غير المدرسة أو خارج أي فضاء من شأنه أن يكون مختصًا في تدريس الفراسة وفوائدها . وعليه فإن اكتساب فن اقتفاء الأثر كانت تتمّ في إطار المجموعة التي يعيش ضمنها الراعي . وكما يتعلّم هذا الأخير ويكتسب تقنيات الرعي فإنّه يكتسب تقنيات اقتفاء الأثر ومتابعة . أي أن الفراسة صارت جزءًا من اهتمامات هذه المجموعة البشرية . مجال الدراسة - الأساسية . و هنا يأتي دور التنشئة الاجتماعية التي تشير إلى « عملية استيعاب الأفراد في الزمر الاجتماعية في إكساب الفرد مثل هذه الدقة والمهارة في متابعة الأثر و اقتفائه وهذا يعني أن كبار السن هم الذين يتولون تعليم واكتساب الصبيّة الفراسة سعيًا منهم لجعلهم قادرين على المحيطين الاجتماعي والطبيعي وهو محيط كان يفرض على الإنسان الحذر والاحتياط . و قد كان زاد الكبار في عملية الإكساب هذه الخبرة التي حصلوا عليها بالإضافة إلى ما كان أبائهم قد أكسبوهم . فكان اقتفاء الأثر فنًا متداولًا بين الرعبان و متوارثًا كأية حرفة أخرى الأمر الذي جعل بعض الجماعات تتميز بحذقها الفراسة مثلما يشير إلى ذلك اندريه لويس (9) فهم قادرون على التمييز بين الناقة والجمل بل إن بعضًا منهم قادر على معرفة صغير ناقته بمجرد أثره (10) .

وهكذا فإن الجماعات الرعوية بالظاهر التونسي كانت تنشئ فتيانها على جملة من القيم كالشجاعة والصبر والنجدة وكذلك كانت تعمل على أكسابهم عبر التجربة والممارسة جملة من الحيل من الحيل مثل تقفّي الأثر وكثف الشاة حيث يورد محمد المرزوقي في كتابه مع البدو في حلهم و ترحالهم « أنّهم بعد ما يأكلون لحمًا الكتف يسلمون عظم الكتف إلى أهل الاختصاص ، لأنّ معرفة ما يدك عليه عظم الكتف لا يعرفه إلا أناس (معطى لهم) أي و رثوا التكهّن بواسطة الكتف عن قريب أو صديق عارف ، أو عن موهبة إلا هبة ، أو يدعاء من أحد الصالحين ، فيستسلمه العارف و ينظر إليه مليًا ، فإن لم يرفيه شيئًا - وذلك قليل - طرحه و إن رأى فيه

بقعة بيضاء صافية بياضها أشدّ من بياض الكتف قال إنّه غدير ، يعني أنّه يدلّ على قرب نزول المطر ، وإن رأى مكانا أحمر أو أدهم في شكل مستطيل يشبه القبر قال : إنّ شخصا سيموت ، قريبا لأصحاب الشاة أو جارا أو من القبيلة ، ويعرف ذلك بعلامات خاصّة لا يدركها إلا هو ، وإن ظهرت في الكتف أشكالا أخرى فإنّ كلّ شيء يدلّ - عنده - على شيء معيّن كرجوع الغائب وسفر الحاضر « (11) » .

وهكذا تكون الفراسة ثمرة المحيط الطبيعي والاجتماعي من ناحية أولى وثمرّة التنبؤ الاجتماعيّة من ناحية ثانية . ولكن مع ذلك لم يكن الجميع قادرين على إتقان تتبع الأثر والإهتمام إلى صاحب الأثر من أثره . في هذا الإطار يذكر المرزوقي أنّ « في أعراب الجنوب رجال اختصاصيون في تتبع الآثار ومعرفة أصحابها من علامات خاصّة في أثر الأقدام أو حتّى في وضعيّة القدم وفي مسافة الخطى » (12) . وهو الأمر الذي جعل هؤلاء الرجال معتمدين ومصّدين « لدى بعض أرباب السلطة المحليين ، فتعتبر معرفتهم للأثر مؤيّدا من المؤنّدات القانونيّة . سرق دكان باحدى قرى الجنوب مرّة فاستدعى القائف (13) . لمعاينة أثر السارق ولما اطّلع على الأثر قال : المسألة بسيطة ، السارق شاب أسود ، فأجمعوا لي سود القرية لأخرجه لكم من بينهم » . وجمعت السلطة المحليّة الشبان السود ، فاطّلع القائف على آثار أقدامهم ، وقبض على السارق الذي أقرّ بفعلته ودلّ السلطة على المسروق « (14) » .

لكن وبرغم هذه الأهميّة التي كانت تحظى بها الفراسة وعمليّة تتبع الأثر فإننا نلاحظ تراجعاً للقيافة أو الفراسة الأمر الذي يدفعنا إلى التساؤل عن أسباب هذا التراجع وكذلك عمّا إذا كانت مرتبطة بتراجع الحياة البدويّة عامّة أم أنّها في استقلال عن ذلك ؟

- تراجع الحياة الرعيّة أدّى إلى تقلّص الفراسة :

لعلّ أبرز ما يلاحظه زائر الظاهر التونسي هو أنّ عدد الرعيان لم يعد كما تجسّده بعض الوثائق . وبرغم قلّة عددها . التي دونها الضباط الفرنسيون في دراساتهم للمجموعات البشريّة التي كانت تجد في الظاهر ملاذا لقطعانها خصوصا بعد افتكاك أراضي الشّمال الحصبة وتقلّص مساح القطعان (15) . وإلى جانب

هذا التناقض في عدد الرعيان ومن خلاله عدد القطعان نقف على خاصية أخرى هي أن الرعي لم يعد محبداً من قبل الشبان وحتى من أقبل منهم على ممارسته فإنه إما بدافع الحاجة وإما لأنه لا يتقن أي عمل ثان . وفي كلتا الحالتين ظهر صنف من الرعيان ، كل اهتماماته مركزة بالأساس على المقابل الذي يتقاضاه نظير عمله . ومن ثمة فإن هؤلاء الرعيان الحديثي العهد بالحرفة لم يعد همهم أن يتدرجوا في سلم الرعيان الذي كان يقسمهم في السابق إلى فئتين هما الراعي والتبيع ويكون الأول مسؤولاً مسؤولية كاملة عن القطيع بينما يكون الثاني مساعداً له . ويكون انراعي قادراً على جبر الشياه المكسورة ومداواة المريضة منها ، و متمكناً من اقتفاء الأثر ولكنه في المقابل يتقاضى أجراً مرتفعاً مقارنة بأجر التبيع الذي كان يعرف أيضاً بالملحق . أما اليوم ، فإن طموحات هذه الفئة الجديدة من الرعاة تكون مرتبطة بالمقابل المالي لا غير المقابل في الغالب تقدماً وشهرياً . وعليه فقد اختفب الفراسة ولم تعد شرطاً ضرورياً من شروط الراعي ومقياساً يميز راعي على راع ثان . شأنها في ذلك شأن دقة صناعة بعض الأواني التي - يحتاجها القائم على القطيع في تنقله من مكان إلى آخر مثل "العذابل" .

عندئذ أمكن القول إن تراجع حياة الرعي لطالغ حياة الاستقرار هو الذي أدى إلى تراجع تقفي الأثر والعناية به . هذا بالإضافة إلى أن الرعي لم يعد حرفة محبذة عند الشباب الذي رفضها ورفض كل الأنشطة الأخرى التي ارتبطت بها ومنها طبعاً ، النشاط الذي نحن بصدد تناوله بالدراسة .

- بعض النقاط الختامية :

لقد ترجمت الفراسة رغبة جامعة عند رعيان الظاهر في التأقلم مع محيطين بشري و طبيعي محفوفين بالمخاطر والصعوبات .
لقد بينت الفراسة قدرات رعيان الظاهر ومعرفتهم لا بالحيوانات فحسب وإنما أيضاً بالتربة مما يبرز نوعية العلاقة الجيدة التي كانت تربط بين الإنسان في تلك الربوع والأرض إنها علاقة قائمة على فهم الأسرار التي كتبت ورسمت على تلك الأرض .

. تراجع الفراسة يبيّن بوضوح التغيّرات التي عرفتتها حياة رعاة الظاهر الذي عرف حجمهم البشري تراجعاً كبيراً .

الهوامش :

Louis (A) : Nomades d'hier et d'aujourd'hui dans le sud Tunisien E D I S U
D ; P rovence ; 1979
I B I D ; P 66 - 2

3. من مقابلة مع أحد الرعاة بالظاهر التونسي ربيع 1996 .
4. ابن منظور (محمد) لسان العرب المحيط ، المجلد الرابع ، دار الجيل بيروت : ص 1073
5. المنجد في اللغة دار المشرق ، بيروت 1986 : ص 575.
6. قانون العرفية بالمنسوب التونسي كما أورده « قدور » : ديمير و دجيو (قدور) : قانون العرفية عند قبائل الجنوب التونسي في موفى القرن التاسع عشر ، تعريب خليفة الحباري ، الإتحاف عدد 59 ماي 1995 ، ص ص 15 ، 24 .
7. الدوار : مجموعة من الخيام يفوق عددها ثلاثة خيام و تحيط ببعضها متخذة شكل نصف دائري .
8. خليل (أحمد خليل) : المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع ، دار الحداثة للطباعة و النشر والتوزيع ، بيروت 1984 ، ص 49.
9. Louis A : Nomades d'hier . opcit ; P 66
10. من مقابلة مع رعاة الجمال بيئر السلطان (الظاهر التونسي) .
11. المرزوقي (محمد) : مع البدو في حلهم و تحالهم ، الدار العربية للكتاب ليبيا . تونس 1984 ص 188 .
12. المرجع نفسه : ص 190
13. القائف إسم فاعل من فعل قاف يقوف قوفا و قيافة : الأثر أي تبعه و اسم الفاعل منه قائف و يطلق على الذي يعرف النسب من مشاهدة أعضاء الشخص و القواف هو العارف بالقيافة : ورد عند المرزوقي : المرجع نفسه : ص 190
14. المرجع نفسه : ص 190 / 191 .
15. يمكن الرجوع مثلا لدراسة الضابط مكار :
Macquart : Etude sur la tribu des Maouias territoire de Medénine dans la R : T
: 1937 PP 253 297

درب الوجود : متاهة اللغة في تفاعلها مع العناصر وإشكالات الفعل الإنساني يتنامى بتنامي الوعي الحاد لدى الفرد

بقلم : أحمد السلطاني

1 - مدخل عام في مقارنة النص :

الوجود دروب :عالم من الموجودات والعناصر تتفاعل بطرائق مختلفة ومعقدة إلى حدّ التناقض ،فليست أنت مدركا للوجود في شئى تظهرات تحاول فهمه ولكنك تقف على عتبات الفهم ،تحاول الولوج غير أنك لا تفلتأ في بوابة ضيقة ولامن دليل. تلك هي حيرة الكاتب وتلك هي حيرتنا . الحيرة التي تصادفنا أناء التفكير وقد تباغتنا أيضا في كل تفاصيل حياتنا على بساطتها . قد يغرينا الكون فتندرب على التعرف إليه ، نحاول جاهدين السير في شعابه ، قد نتعثر فنحيد عن مسلك السؤال . ويحدث أن نمسك بضوء صغير فيبعثنا هذا النصّ القليل على التوغل في فعل المشاهدة . مشاهدة الأشياء وقد أخذت مجراها أو نسقها الطبيعي ... ولكن أن نشاهد النهر وهو يجري ، هل هذا يكفي ؟ لماذا لا نكون السمكات تخاصم التيار وتغالب دفق المياه ، تغالب قوة الدفع ؟ وماذا علينا لو صرنا سفينا تجري ضدّ ما تشتهيه الرياح ؟ تلك هي « لعبة القدر يتلهى بنا » لكننا نعاركه .. فرسل أصواتنا ... قد تكون مبحوحة في البداية لكننا لا نخجل إن نحن أخذنا في الإعادة .

هكذا كانت الكلمة ، وهكذا كان في البدء القول قول يعارض انسجام

العناصر على نحو وديع فيعمد إلى تكسير هذا السائد هاجسه تأسيس العالم في شكل أرقى تحكمه رؤيا ملتصبة تتحرق إلى التصادم مع السكوت وتتلهف إلى معانقة الحركة و الفعل بغية التأسيس لعلاقات أكثر حدة وإبذاء .

إن الذي يستبدّ به قلق السؤال وحده من يغامر بالقول ولا يركن إلى الدعة ولا يطمئن حتى يلقي بدلوه في لجج التيار ، يتحرق إلى السراب اليقين وهو الظامئ المتعطش إلى برد الحقيقة . المبدع وحده من يختار درب الحياة ، حياة لا كالحياة فيرى الأشياء في غير الألوان التي حفظناها ، يراها بعين ثاقبة تتجاوز النظرة الخاشعة المستكنة ، يشاهدها بعين ماكرة ، و يراقبها في كل حركاتها البسيطة منها والعرضية اليومية فالمعقدة . فيكتب حياته بكل أشجانها يكتب الوجود في ضجته وصخبه ، في حركته و صيرورته . ذاك هو المشهد الفلسفي عند الأستاذ الدلال ، مشهد يشي بالإرادة و يحيل عليها ، بل يفضي إليها . إرادة في القول ، إرادة في التسمية ، تسمية الماضي بما فيه من ألمعية الصور ، وكتابة الحاضر المرتبك المتردد ، مستشرفا خلال كل ذلك أفقا وضينا قد يبعد ، لكنه غير قصي عن شخوص تتحرق إلى الإنعتاق .

وإن نلج اليوم بالنقد عالم الكتابة وفضاضها في هذا النص الجديد الصعب . فنحن لم نتعود على الأقل منذ فترة بهذه الطريقة في الكتابة . فان مقارنتنا هذه لن تسعى إلى تقديم الأجوبة ولن تكون غايتنا النهائية فهم هذا النص في كليته ، سنكتفي بالسؤال ، وتلك في رأينا المهمة المركز للنقد .

وقد لا تحدّد جنسا معينا أو نوعا نزوم محاصرته لأنّ في دفتي هذا الكتاب أكثر من جنس ، وأكثر من نوع . اللغة مناهة و الصورة أيضا و كذلك الإيقاع بطوح بالقارئ في كل صوب فلا أنت مدرك لجنس ولا أنت الذي تبلغ المعنى المخصوص الجاهز . ولعلّ هذه هي السمة الأرقى التي ميّزت هذه النصوص وأعطتها قدرا من الاختلاف ينحت لها خصوصيتها فيوفر لها إمكان حياة ليس يسيرا : سمة تجتمع في سمات : الغموض و التخفي و التلميح . شرسة اللغة وحدة الأسلوب و شساعة المعنى . وإذ نزع مقارنة هذه النصوص في كليتها فان ادّعائنا هذا باطل لا محالة . إذ من العسير على القارئ أن يحيط بكلّ ما في هذه التجربة من معان

ودلالات و سبعة وحتى لا تفلت منا بعض الإفادة العلمية نحن نبتغيها و نطمح إليها فقد اخترنا التركيز على نصّين في الكتاب ، وهو اختيار مقصود عمدنا إليه ، وسنبرره في ما يأتي من الحديث ، لعلنا في ذلك نوّفر للتمشّي في المقاربة قدرا من الوضوح يجعله يكون أسلم . وبذلك تكون النتائج التي نخلص إليها في الأخير أكثر دقّة ، أو أقلّ أكثر وفاء ، للنصّ في بدنه .

النصّان اللذان اخترناهما هما :

• إثنان إذ هما ببغيان

• الصياد والبحر .

وقبل تناولهما سنعمد إلى الإشارة إلى بعض الملامح التي ميّزت الكتاب في نصوصه المختلفة ، لعلنا في ذلك نيسر على أنفسنا إمكان محاورة النصّين اللذين وقع اختارهما .

أولى ميزة نقف عندها هي العنوان : « درب الوجود » ما مدى سيرة العنوان بالسيرة الذاتية ؟ إن صيغته بهذا الشكل توهم بأنّه يتدرج ضمن ما يعرف بكتب السيرة الذاتية التي عادة ما تأتي في نهايات مجارب الكتاب بعد أن يكونوا قد أنهوا مشاريعهم القولية أو الكتابية . ولكن هذا الكتاب على حدّ علمنا هو أول ما ينشر الأستاذ محمّد الدلال وهو يشير في مقدّمته إلى علاقة عديد اللوحات بحياته فهو يقول : « وحتى يكون القارئ عليما بأن من اللوحات ما كان سليل ظرف بي ألم » .

وهنا يقوم السؤال : هل إنّ الدرب في الوجود هو درب الكاتب وهل إن الوجود هو وجوده المخصوص ؟ فنقل لنا بذلك حالاته في مواقع وفي مناظر مختلفة ، أم إنّهُ كتب تجربة الإنسان من خلال تجربته فردا وقد شارف مرحلة الوعي الحادّ بالعناصر في آنسجامها المألوف . ولا نظنّ أنّه فاعل غير ذلك ، فالأستاذ محمّد الدلال له وعي فلسفي بمشكلات هذا الوجود وإن استفرغ ذاته فيه بطريقة ما فهو في رأينا يريد أن يرى ذوات الآخرين من خلال شخوصه وقد اندفعت نحو الفعل فعل يتوق عبره الإنسان إلى معانقة الألوهية .

• الميزة الثانية أو الظاهرة المحيرة التي نقف عندها : مدى الارتباط أو الصلّة بين

هذه اللوحات . هل إن النصوص مختلفة أم إنها تنفصل لتتصل في النهاية .
الواضح أن هناك كونا عاماً يجمع بين النصوص ، وأكثر ما يشدها إلى بعضها هو
هذه اللغة المخصوصة التي مثلت في رأينا الغاية القصوى لجلّ النصوص ... لغة
يريد الكاتب تكرسها فيفرغ بها وفيها مواضيع ومضامين شتى .
ولا يتوهم أن الكاتب محمد الدلال ظلّ أسيراً إطار اللغة ، فجعلها وحدها
الخيوط الناظم للوحاته ، بل ثمة جوانب أخرى يمكن أن توحّد بين هذين النصوص ولعلّ
الجانب البارز بعد عنصر اللغة هو فضاء الكتابة ، ونقصد بفضاء الكتابة
الشخص والزمان والمكان ثم الأحداث ودلالاتها . بقول الكاتب في مقدّمة
الكتاب « ولكنّه الإنسان بنحت ملحمة الوجود ويغنّي مأساته في كَلَم راقص حتى
كأنّه رقيق النغم . »

هي إذن خطى الإنسان في كلّ مراحلها من الصراع الكوني ، صراع الفارس
العربي ضدّ القدر وضدّ الموت ، صراع أبي العلاء مع يوم الحساب ، وصراع سعيد
مع الحوت ، هكذا تشترك الإنسانية في هذه النصوص في الغاية فتجتمع ، بل
يجمّعها محمد الدلال حول ضرورة الفعل ، فلا تكون حياة حتى ينبس
الفعل ولا يكون وجهه إلا متى غابنا الزمن فأنشصرنا عليه أو على الأقلّ توهمنا
ذلك . ذاك ما أكّده الكاتب نفسه حين يقول : « خلق الإنسان ليشقى فالوجود
مأساة ينحتها القدر على جبين كلّ آدمي » ولعله يعي توافق هذه النصوص في
خطها العام فيتساءل في صيغة إنكارية : « قد تقرأ هذه اللوحات العشر مثنى
وثلاث ورباع فتتساءل أما من صلة رحم بينها جميعا ؟ أفيمكن أن تنتظم هذه
اللوحات في رؤية متماسكة ؟ » . ونجيب بكلامه فنقبس هي « رؤيا الإنسان في
درب الوجود يصادق ويلدّ وصالا وينعم بجمال المرأة فيوقع على فيضه عذاب
الملحون ويستمرّ لذة الأبوة ولكنّه يصطدم بحاجز الموت فيحسّ بفنائه فاذا هو إلى
الجلود تواق » .

هكذا نخلص إلى نتيجة أولى وهي أن هذه النصوص وإن اختلفت في
بنيتها أو مضمونها فهي في بنيتها العميقة نصّ واحد يحكي « قصّة الإنسان في
درب الوجود » .

ثم إن ما يستوقفنا بشده هو ظاهرة التقديم أو التمهيد لكلّ نصّ أو لكلّ لوحة

من هذه اللوحات، وهو شكل في الكتابة جديد لم نعهده من قبل . وقد يحق لنا أن نتساءل عن مبرراته وعن أبعاده . وبعداً بعد ذلك التسهيد معرقلاً للنص أم خادماً له في علاقته بالمقبل ناهيك أن كل مكتوب يستحضر بالقوة طرفاً آخر هو المستقبل أو القارئ .

إن الكاتب محمد الدلال واع بما ينجزه فهو يقول في هذا الشأن : « أفلم يكن أجد أن تعرض اللوحة بلا سابق تقديم فإن ذلك مما يخل بحرية القارئ في التأويل ؟ » ونحن إذ نشاركه في ما ذهب إليه من القول إن التقديم يحد من حرية القارئ في الفهم والتأويل ، فإن عزاً منا في التمسك بهذا التقديم أنه قد تحوّل إلى نص مواز فيه ن الإبداع ما يقارب النص الأصل أو يفوقه أحياناً . ولعل أبرز ميزة في مختلف التسهيدات هي إحالتها على مرجعيات الكاتب في القراءة بل في الكتابة وهي مرجعيات ثرية وشعرية استلهمها من التراث . ثم إن هذه المقدمات تكشف لنا عن الحس النقدي لدى الكاتب إذ هو يعامل نصوصه ويتقبلها بشكل يفصل فيه ذاته وبياعدها عما يكتبه ، وهذا جهد نشمّه .

بيد أن ذلك قد يسجن القارئ في ما بعد في حدود ضيقة له صاحب النص منذ البداية ، وهذا التعامل الما قبل مع اللوحة قد يوجه القارئ وجهة معينة فلا يعمل العقل ولا يمارس ملكة التفكير في نص بكر وخام . ولعلنا نجد في النصوص ما يغفر للكاتب تقديمه لها . ما نقف عليه هو صعوبتها وتوعيرها في اللفظ أحياناً فالكاتب صفوي اللغة متفتن في إخراج الصور على نحو معين ، وربما خشي الدلال على نصوصه أن لا تلاقي الفهم الذي يبتغيه لها فعمد إلى تقديمها .

... ومن المسائل المهمة في قراءتنا لهذه النصوص مرجعيات الكاتب في فن القول لديه .

وما هو جلي هو التأثير الواضح بالنص القرآني في لغته وفي طريقة عقد الكلام ومضامته ، فالكاتب موغل في التصوير مسرف في البلاغة .

ثم نقف على التأثير الواضح بكتابة المسعدي وهو ما يصرّح به الكاتب نفسه حين يقول « فلا تعجب إن تقيت بعض خطو المسعدي ناهيك في تينك اللوحتين » إثنان إذ هما يبغيان وحديث الوجود يطلب معناه فلا يفتأ سراها ، حضرت الشخص ذاتها

مسيدين ، ليلى ، أبو المدائن وأبو هريرة ثم إنَّ الموضوع يصبّ في ما طرقه
المسعودي من مضامين في أثره مولد النسيان وحدث أبو هريرة قال ...
ونحن إذ نشير إلى هذا التأثير أو هذا التقاطع أو التناقص كما تنعته بعض
المدارس النقدية الحديثة فأننا لا نعيب هذا حجّتنا في ذلك أن الكاتب أضفى على
نصّه من قبض روحه وأفرغه لونا خاصاً به حتى وإن أوهم أنّه كاتب بارّ للمسعودي
ومطيع لأسلوبه في الكتابة . إن الطاعة في رأينا هي أرقى أشكال الرقّض والخروج
... هي إيهام بالتعلّق والاتباع لكنّها غير ذلك طالما تنتج نصّاً آخر وكل مولود وإن
صادف أن شابه سابقاً له فهو بالقوّة مختلف عنه . هكذا نزع من أن نصوص الأستاذ
محمد الدّلال على التصاقها بقضا . الكتابة في مرجعيّات سابقة وخصوصاً نصّ
المسعودي ، فهي قد تجاوزتها بدءاً بأحيائها ثمّ الابتعاد عنها ولعلّ نصوص الدلال
القادمة تؤكّد ما نحن بصده .

ولقد تمّ اللقاء بين الأستاذ و تلميذه و تنوّعت مسألة التناصّ بينهما ، فرأينا من
المفيد أن ننقل حرفياً وقائع الحوار الذي دار بينهما ، تماماً كما نشرته مجلة الملاحظ
في العدد 239 بتاريخ 97/9/23 .

وكما حرّر بأسلوب الكاتب نفسه وقد مثل في إحدى « لوحاتك » يبرز تأثير
بالمسعودي ، فهل هذا التأثير هو تأثير فلسفيّ أم أسلوبيّ فنيّ ؟ فكان من الجواب :
« كل من قرأ » درب الوجود « قطع بهذه الحقيقة : تأثيري بمحمود المسعودي ناهيك
في تبنك اللّوحتين : « حديث الوجود يطلب معناه فلا يفتأ سراها » و « إثنان إذ
هما بيغيان »

اعتمدت هذا المنحى وأفصحت عن هذه الحقيقة في مقدّمة الكتاب ، وهو تأثر لا
يتعدّى حدود الشكل : الشخصيات والمضمون أمّا التشكيل الأسلوبى فمختلف عن
المسعودي الإختلاف كلّ . هذه المسألة أرقّنتني ، لذلك قصدت بيت محمود المسعودي
دات عشبي وجرى بيننا حوار تمتع دام ساعتين متصلتين . كان في مفتح شهر
جانفي 1997 أكرموني إكراماً و أنزلني منزلاً حسناً وطفق يحدثني عن تجربته
الغنيّة أيّام كان أستاذاً بالصادقيّة وذكر لي الأساتذة الذين تتلمذ عليهم . ثمّ سأله
رأيه في الأثر فقال : « يا بنيّ ليس لي من رأي إلا أن أقول لك كلمتين : الأولى

خذ الشُّقة بنفسك والثَّانية : « كن أنت » قلت : « إنِّي واثق من نفسي الشُّقة كلَّها في غير ما غرور أو كبرياء وأما عن قولك : « كن أنت » ففيه وجهان : وجه سا لب وهو أنني أستنسخ عنك فقرا بلا روح شخصيَّة فأما أقلدك تقليدا أعمى ووجه موجب وهو أنني على حادثة سني قد ارتقيت إلى مرتبتك ولم يشهد شاهد من أهلها ، بل شهد صاحب الشأن ذاته . يا سيدي إنِّي جئتك من مكان قصيَّ أسمى ، ضربت إليك أكباد الإبل ولا إبل ، وكنت أمنيَّ النفس أن أجلس إليك فتحدثني فمن زمن أتعشَّق أدبك و أشهد بأنَّه السحر يفتن المرء عن نفسه . جئتك لتأخذ بيدي وتوجَّهني فإذا أنت تفاجئني بأمر ما كنت أتحسِّبه ، أتشهد بأنني نسخة منك وأنت تعلم أن خصائص جملتك تختلف عن خصائص جملي لو سلت عن أسلوب محمود المسعدي لقلت : عزة في اللَّفط وغناء في المعنى .

جملتك تبدو مبتورة لكنَّها جلي بالإيحاء وذاك هو الإعجاز أما جملي فسيَّالة طويلة ، فربَّ صورة استغرقت صفحة بحالها ، ثمَّ ليس عجبا أن تلتقي جملتك مع جملي في الإيقاع والتركيب أحيانا فمصادرها واحدة (الشعر الجاهلي - القرآن - المتنبي - التوحيددي ... المعري ... الإصفيهاني ...) « إثنان من إناء عسلا يغترقان أترى الواحد منهما يطعم عسلا والآخر يطعم عسلا ؟ »

ورغم أننا تنهل من المعين ذاته فأقرب نصٍّ من أسلوبك هو نصُّ الإصفيهاني ، وأحسب أن أقرب نصٍّ من أسلوبي هو النصُّ القرآني . هنالك آتسم و أضاف : « ألك مشروع آخر ؟ قلت : « من تسع حجج خلون وأنا منكبٌ على تأليف رواية عنوانها : الوهم والحقيقة . لحصت له مضمونها وخصائصها الفنيَّة السردية في إيجاز وتلوتٌ على مسمعه ما آتيسر من فقرها وكان بترنم على توقيعي ... والتمس مني أن أعجل بإتمامها عسى أن يطلع عليها . قلت : إنَّ نفس الله في البقاء لي ولك . »

هناك آفترقنا وهولا يفتأ يردد : خذ الشُّقة بنفسك وكن أنت ! « قلت في حياء : « أنا واثق الشُّقة كلها ، وأنا هو أنا وأنت هو أنت »

.... وتبقى مسألة أخرى محيرة في هذه اللوحات وهي المزج بين قضايا مستلهمة من التراث ومن التاريخ القديم بما يتوقَّر عليه من أسطورة ودين و مخيال شعبيّ

ومدونة ثقافية كاملة وخصوصا المدونة الشعرية وبين معان حادثة لعل أبرزها الفكر الوجودي كما تظهر في الدرس الفلسفي الحديث وخصوصا في تمجيده للإرادة الإنسانية والقدرة على الفعل والحركة والسيرورة مؤهلة في كل ذلك الإنسان بما هو طاقة على الخلق والإبداع في كون مليء بالتناقضات والتعقيدات . هو مزج يشي بالتناقض ولا تناقض فصرخة الإنسان ورغبته في وجود حقيقي قديمة قدم الوعي ولعلها انطلقت منذ أغوى الشيطان آدم وأغراه باقتطاف الثمرة فخرج من الجنة وأصبح مسؤولا ... هذا إذا جارينا الحكاية والفهم الميثولوجي للتاريخ . أما إذا تحدثنا على لسان مدين الدلال فنقول : « هو التوق إلى كشف الحجب » فالحقيقة مغرية ولكي نعانقها لا بد من التضحيات وإن أدى الأمر أحيانا إلى الموت أو الضياع مثلما حصل لسعيد في مغالته للعاصفة .

هكذا إذن ، يوظف الكاتب محمد الدلال مرجعيات عديدة ويؤلف بينها وليس له من غاية إلا تمجيد الفعل والإرادة لدى الإنسان ، فتوسل بأدوات نصية عديدة فتشكلت نصوصه في نسج يحكمه التوتر والصراع بين الوهم والحقيقة على حد عبارته وهنا نجد أنفسنا محمولين على ولوج النصوص ومحاورتها حتى تتجلى لنا هذه الأبعاد .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

2. قراءة في لوحة : إثنان إذ هما يبغيان .

تم التمهيد لهذه اللوحة بأبيات شعرية لأبي الطيب المتنبي تجتمع كلها حول الشكوى من الدهر والزمان والموت . هو تدمر من قسوة القدر ، قول فجائي يحيل على يتم الإنسان ويرمز إلى الضياع السحيق الذي يلف حياة الفرد فتجتمع أسباب عديدة على تشريده وإبذانه . إن هذه الأبيات تلخص الصراع الكوني القائم منذ البدء بين الإنسان وبين الدهر تشتد قسوته ويحتد إبلامه . لكن هل يكتفي الفرد بالشكوى ؟ وما جدوى التدمر ؟ هل يسابر الكاتب في اللوحة المتنبي في عميق تفجعه ؟

واقع النص محكوم بتوتر شخوصه :شخص ثلاثة : إثنان يحضران بالفعل :

مدين وليلاه . أما الثالث فحاضر بالقوة ويتكثف حضوره في نسق تصاعدي كلما اشتد السؤال وازدادت حيرة البطل . هو القدر العدو اللدود الذي يغص على مدين ويحول بينه وبين التمتع بحسن عشيقته . فرغم تهينة الفضاء وإعداده على نحو بغري بممارسة فعل الحب فإنه يصرف نفسه عن ذلك . فهو لا يعرف إلى الهدوء سبيلا طالما أن فكرة الانتصار على القدر تستبد بعقله وتستغرق كل وجدانه .

عناصر عديدة اجتمعت بشكل يوم أن مدين سينشغل بجمال ليلاه فالليلة قمراء والضياء يغمر المكان وينعكس على جسد الحبيبة التي بضوع حسنها . لكن المعرقل أو المنقّص في عدم تمام هذا الفعل هو كما قلنا ما يشغل باله من حيرة هي حيرة المعرفة ...

إنه يتعقّف عن مطالب مادية قد تكون بهيمية ورخصة وهذا غير مصرّح به لكن هناك إشارات تحيل عليه « أطلبك فلا أجذك وإنك لتدانيني كيانا فإذا أنت عتي قصي مهجه وروحا .. المطلب الروحي إذن ينتصر ، يظهر ذلك من خلال الحوار : حوار فلسفي في العادة لا ينشأ بين مجيّن فلم تجر العادة على أن ينشغل المرء أثناء لقائه بمن يحبّ بمسائل ذهنية تجريدية تنزع إلى التعقيد والتحصّر .. هذا ما حملنا على القول إن الشخصوظ رموز ... هي على حد عبارة هيلغل : « كائنات ورقية » يتوسّل بها الكاتب إلى صياغة أفكاره .. هكذا تنامي الأزمة بتنامي الحوار .. فتتخلّى ليلى عن حاجتها إلى الحب .. وهي في ذلك تجاري رغبة مدين في أن يكون الأقوى تتحوك من شخص معرقل إلى مساعد ... تتيج لمدين أن يكشف عما بداخله فتناشده « هلاً سكبت في مسمعي ما تمخّضت عنه هذي الليالي الطوال من فكر ، ألا حدّثني عن القدر وما يكون وعن الإنسان في أيّ مسلك يضرب » .

فتتجاهل وهي في ذلك : إذ تتصاغر إنما تمنح مدين إمكان العظمة أو الأنوهمية التي يتوق إليها .. فالمعرفة تأله واليقين بعد من أبعاد القوة التي تشغل مدين وتجعله يتناسى حاجات وغرائز بيولوجية قد تذكر بوضاعته وهو التائق إلى الكمال المحبّ للعلو والتجبر . تتخذ إذن ليلى موقع السائل الجاهل ويبدو مدين في موقع العارف صاحب التجربة خبر الأشياء وحركته الحياة . ليلى وعاء يصبّ فيه مدين خلاصة تصاغرها وتخليها عن حاجتها بوحى بذلك . ويدعم كل ذلك عديد القرائن

النصيّة ... كشافة الكمّ الكلامي لمدين ، ثمّ حين تكلمت كان بكلامهما حشرجة وغصّة فهي خائفة متردّدة لا تقوى على أن تصدع برأيها . قد يكون تعلّقها بمدين هو الذي دفعها إلى موازرتة هي متعلّقة بصورة الفحل فيه أفلا تكون حاجتها عنده هي التي جعلتها تسابير أفكاره حتى لا تخيّب أفق آنتظاره وتجاري وهمه في العظمة وهي تعلم أنه لا محالة ضعيف .

هكذا إذن نقف على صور للشّخوص معيّنة تتحدّد بتحدّد مراكز القوّة لديها فنجد ليلي ← مدين ← القدر

ليلى : الشخصية التي ترتبط بالأرض تحكمها في النّهاية مطالب واقعيّة : رغبة في الإخصاب وفي « الحياة نحيّاها »

مدين : السرافض للمواقع المتنكر لرغباته التواق إلى البقين وبالتالي إلى القوّة والتأله يغالب القدر مع أنّه يعلم أنّه أمهرمنه وأقدر .

القدر : هو هذه القوّة الجبارة القادرة على طمس كلّ شيء :

هو الرّحى إذ تفعل في الحبات فعلها وتجبرها على الطاعة والانصياع وقد نستغني عن هذا المذهب في التفسير : تقسيم الشخوص فتصير ليلي مع مدين ونجعل للنص قطبين هما الإنسان في كليّته بذلك النصّ المزدوج المتّردّد في أعماقه : صوت ينقسم إلى نداءين نداء الفعل ونداء الكسل أو الخمول الذي تمثله ليلي بشيء من التّجوز ، والقطب الثاني هو القدر . قالى أي مدى يسمح لنا النصّ بأن نساي بين هذين القطبين ؟ ... لا شك أنّ هناك غاية جوهريّة ظلّت مخبوءة أو غير مصرّح بها لكن قد يكشفها العنوان في صيغته الظّاهرة : « إثنان إذ هما بيغنان »

إنّ هذين الإثنين في النّهاية هما طرفا الصراع البدني والمعلوم . إنسان مسلح بالعزيمة والإرادة في مقابل قدر ، دهر ، زمن يمتلك جانب القوّة ما قبلًا .

وإذ يوهم النصّ في الأخير بانغلاقه على التسليم بضعف الإنسان وآرتداده إلى الحسran فإنّه منفتح أيضا ومتوّج . في إمكان الإخصاب ينتفي مدين وقوت ليلي لكن يستمرّ المولود ليأخذ الصّراع شكله الدائري .

إنّ ما يزيد هذا النصّ كشافة في التّدلال هو شراسة اللّغة التي تفتح على مشاهد من الرّعب وتصور حالات من الموت والدّم والنّار والنّهش والشرّ ... تتكشف

التسمية فيتنامي الرعب في الصدور عاكسة في كل ذلك انفعالات الإنسان إذ يدرك مصيره المحتوم النهائي فيشغله هذا المشهد ولا منقذ غير الهمهمة والعويل ثم الحشجة والغصة.

في مستوى بنية النصّ عمد الكاتب إلى تكثيف الأسماء ، حركها عن طريق فعل القول الذي تلبّس بالشخص فكأن النصّ كيان ثابت رغم إبهامه بالحركة في الفعل الأول الذي يطالعنا في العنوان « ييغيان » . لقد تأكد سعي البطل نحو بطولته الكامنة في الانتصار على القدر . لكنه سعيّ ظلّ مبتورا خصوصا وقد آتسّشعر مدين أنّه مهزوم لا محالة .

الأفعال من جهتها أوهمت بحضور الفاعل [غمر - انصرف - يتعشّق - تفتّق - صفا - ربا - أرى - أطلب (ك) - أجد(ك) - تدانياني(شغلك) (أخيت) حدثتني - أخي(ت)] لكن هذا الفاعل لم يكن يتحرك بمقتضى إرادته . هو في ذلك يحاكي الفاعل الأكبر : القدر ويظهر ذلك في قوله « هما إثنان لا يفتآن ييغيان ويعلون فيتجبران . لكن القدر هو الأهمر . إن إضفاء سمة المهارة على القدر يعني في ما يعنيه خلعها على الإنسان الذي يمثّله مدين هذا الذي سيأخذ شكل الحبة في علاقتها بالرحى ، صورة مجسّدة تحيل على صورة ذهنيّة فهي تقرّنا من الفهم ، وتمكّن مدين من إفهام ليلي ... فهل كانت ليلي بحاجة إلى صورة الرّحى في علاقتها بالحبّ حتّى تنهيّا لمعرفة فظاعة هذا المصير ... فلم يشفق عليها البطل حين قدّم لها المصير بطريقة فجائيّة مؤذية ، فهل إنّ البطل وهو الذي عرف فداحة هذا المصير رفض أن يتغذّب وحده فأرتدّ صاديا يريد أن يشرك أقرب الناس إليه في ما يؤرقه ويقلقه .. هو قلق المعرفة تنو- بحمله العقول فتنتشره في الناس وتستقبل من متاعبه وقديما قال المتنبي :

إذا كانت النفوس كبارا : تعبت في مرادها الأجسام .

ولعلّ صدى ذلك يمتدّ في بعض النصوص الأخرى وبالتحديد في الصياد والبحر حين تنفخ روح الملاح في نفس سعيد ، فيرث حبّ البحر والرغبة في التعرّف إليه من خلال تحذير والده ومن خلال الصيادين العائدين . فما هي ملامح هذه المتاهة في هذا النصّ؟ وهل من التقاء بين صورة سعيد هنا ومدين في النصّ الذي رأينا ؟

3. قراءة في لوحة « الصياد والبحر »

يمهد الكاتب لهذا النص بتقديم يكاد يضاهي النص الأصل من حيث القيمة والعمق ، وإذ تبدى لنا الشخوص في التقديم في أيدي الكاتب وبين قبضته هو الذي يحركها فهي في اللوحة تنهض بالفعل وتؤدي الدور الذي رسم لها عن قرب . واقع النص : فضاء يوهم في البدء بالضيق والانغلاق ، لكن سرعان ما يفتح ويتسع من فراش ضيق وحالة قيام من النوم إلى مغالبة السكون ، فينتقل المشاهد من صمت مطبق إلى صوت مدوّ . فالبطل : « يكبر ويتسع حتى كأنه الكون » إنّه البطل الذي يتوفر على كلّ صفات العظمة يقدمها لنا الكاتب في بنية فربولوجية تجعله يتمكّن من حيازة موقع القوة ومنازل الفعل فيركّز على صفات الرجولة فيه ، يظهر ذلك من خلال الفراش الذي ينام عليه فهو خشن ، ومن خلال الجهورية التي في صوته المدوي . هذا يؤهله تدريجياً إلى فعل المواجهة ، فكان الكاتب وهو الفطن إلى قوة البحر وعمقه كما أشار إلى ذلك في التمهيد بتوسّل بهذا البطل القويّ المرید إلى الشارلنفسه وهو الذي يخشى هول البحر . وحوته . إن الكاتب يتبدى في صورة البطل : سعيد ليس إلا رمزا لطموح الكاتب وتوقه إلى التحدي والمغالبة ، وحتى حين يحجم عن القول فلا يسرّ إلى زوجته بالأمر الذي يؤرقه ، إنّما ذلك رغبة فيه دفينة إلى الاستفراغ بكامل العهد ، يريد أن ينهض بالمهمة وحده حتى يستشعر فعلاً أنّه الأقوى ولا أحد غيره . هكذا تبدو روح البطل ممعنة في العناد لا تضعف ولا تأبى الخضوع .

إنّ سعيداً في النهاية هو مدين .

في اللوحة الأولى : ثلاثة أقطاب رئيسية : القدر ، مدين وليلي ، وهنا البحر أو الحوت وكلاهما شيء واحد ، ثمّ سعيد وسعدية .

وإن يذهب صلاح الدين الحمادي إلى أنّ سعدية الزوجة هي المرأة الخدوم المستعدة دوماً لتلبية طلبات בעلها دون أن تفهم رؤاه الفلسفية وهو المصاب بطاعون التحدي وحب الكلمة ، فاني أخالفه الرأي في ذلك ، ذلك أن انتزاع صفات الطموح والتحدّي منها ليس إلاّ ترجمانا عن رغبة الكاتب الدفينة . وإنّ في اللاشعور . في إصاق كلّ هذه الصفات بالبطل الأوحّد سعيد . وبذلك تكون سعدية قد تلبّست

بشخصية المعرقل الحاد الذي يحفز على مزيد الرغبة بالفعل في دعوته إلى نقبض ذلك ، فهي حين تطلب من بعلمها المكوث إلى جانبها وطفليها إنسا توجع داخله ذلك الصوت الرافض الذي يعتدل في صدره ويلع عليه في الإنطلاق والمغامرة . وكذلك كانت تلك الشخصية العرضية الأخرى ، ونقصد بها الحالة شعله التي تحيل على الفكر الخرافي والشعوذة ، وهو الخطاب الذي يلجأ إليه الفرد العاجز حين يعجز عن فهم الظواهر من حوله ، وكذا فعلت سعدية أمام صدور زوجها وقماده في المغامرة والعناد .

هوامش :

1. صاحب المقال : أحمد السلطاني ، تحصل على الأستاذية في اللغة والآداب العربية سنة 97-96

. متخرج من كلية الآداب بسوسة .

. له محاولات شعرية عديدة .

2. درب الوجود : أثر جماع لأجناس أدبية مختلفة ، بل هو جنس الأجناس يعالج أمهات القضايا الوجودية والإنسانية في أسلوب أمثلهم من بلاغة التراث غير قليل صدر سنة 1995 عن دار المعارف بسوسة . وهو من الحجم المتوسط يقع في مائة وإحدى وأربعين صفحة .

3. صاحب الأثر :

محمد الدلال أستاذ جامعي بكلية الآداب بسوسة . ولد بمدينة المهدية في 8-4-58

تحصل على الأستاذية في اللغة والآداب العربية سنة 1981 وتحصل على شهادة التبريز سنة 1987 . نال جائزة رئيس الجمهورية في الأستاذية روائي ، لغوي ، ناقد درس كل المواد المتصلة باللغة : النحو ، الصرف ، البلاغة ، العروض ، الصوتيات ، اللسانيات ، التفكير النحوي ، مناهج البحث في اللغة .

وفي إطار التعاون الفني بين كلية الآداب بتونس ، وجامعة كلارمون فران ، أنفق سنة 87-88 في جامعة كلارمون وفيها درس اللغة العربية والحضارة والترجمة .

. له مقالات عديدة أدبية ولغوية .

. من ستين ينكب على تأليف رواية ذهنية اجتماعية عنوانها : الوهم والحقيقة .

مقاربات نقدية لنصوص شعرية وروائية قراءة لكتاب "قراءات في الأدب التونسي المعاصر" لفوزية الصفار الزاوق

بقلم : عبد الرحيم العلام
المغرب

تشهد الحركة الأدبية والنقدية بتونس تراكما نوعياً وكمياً ، سواء بالنظر إلى عدد الإصدارات في الحقلين الأدبي والنقدي ، أو بالنظر إلى المهرجانات واللقاءات المحلية والعربية التي تقام بتونس على امتداد السنة ، وهو ما جعل الحركة الأدبية والنقدية تعرف انتعاشاً ملحوظاً . وتساهم المرأة في إغناء هذا التراكم كما وكيفا ، الشيء الذي يمكن تلمسه من خلال تزايد الأسماء الكاتبة والإصدارات المتنوعة للكاتبات التونسيات .

من بين الإصدارات الجديدة في مجال النقد الأدبي نتوقف عند كتاب "قراءات في الأدب التونسي المعاصر « لفوزية الصفار الزاوق ، الصادر عن دار الخدمات العامة للنشر (تونس 1998) . و الكتاب ، في مجمله ، عبارة عن قراءات في نصوص روائية وشعرية لكل من محمود طرشونة وحسن نصر وعبد الرحمان مجيد الربيعي وماريو سكاليزي وجميلة الماجري .

وضع محمد صالح بن عمر مقدمة لهذا الكتاب ، أشاد فيها بالنقادة فوزية الصفار الزاوق ، هذا الصوت النقدي النسوي الصاعد ، كما يسميه ، والذي بدأ يحتل موقعا له بثبات في الساحة الثقافية التونسية . كما نوه صالح بن عمر بالممارسة النقدية لدى فوزية الزاوق ، مساهمة منها في " تشريح الأعمال الإبداعية والفكرية لكل من منور صمادح وسعيد أبي بكر والصادق مازيغ ومترجمات محمد

اليعلاوي إلى جانب إشاراتِهِ أيضاً بالحِصَالِ الْعِلْمِيَّةِ والأَخْلَاقِيَّةِ لِلنَّاقِدةِ ، وكلّ ذلك يجعل من هذا الكتاب ، في نظر كاتبِ المَقْدَمَةِ ، لبنةً جديدهً في صرح النّقد الأدبي التونسي .

ويُتَضَحُ من خلال قراءتنا لمقاربات هذا الكتاب أَنَّهُ يعتمد القراءة النصّية العاشقة للمتن المقروء ، دون إغفال التحليل بالاستشهادات النقدية أو النظرية أو بكثرة المراجع والمصادر ؟

في قراءتها لرواية "دنيا" لمحمود طرشونة تتوقّف النّاقِدة عند تحليل قيمة المكان في تعدديته وانفتاحه في الرواية ، وأيضاً في تحديده لمصائر الشخصوس ، وفي واقعيته ورمزيته وقديسيته أيضاً ، إلى جانب غياب البطولة في الرواية ، إذ أنّ المتأمل في رواية "دنيا" يستنتج أنّ البطولة فيها باطلة ، وإن كان الكلّ يتراعى بطلا (ص13) . إلى جانب ذلك توقفت الناقدة عند رصد طريقة اشتغال بعض المكونات الشكلية في الرواية ، كالحوار واللغة ، كما يلعب التأويل دوره أيضاً في اكتشاف المعاني والدلالات الخفية والمباشرة فيها ، إلى جانب الربط بين الشكل والمضمون ، وهو ما يجعل من هذه الرواية ، في نظر المؤلفة ، مجالاً لبناء العديد من الثنائيات ، أهمّها الصراع بين الأصالة والمعاصرة : أصالة صهرت بين الموروث الثقافي المحصب بحمولاته الاجتماعية والأدبية والعلمية والثقافية والتاريخية والحضارية عامة ، ومعاصرة تستمد قوتها من الحاضر لتواجه المستقبل . وهي في الحقيقة أصالة تستنير بروى وقيم جديدة ، أصالة تعانق المعاصرة ، بما في المعاصرة من امتداد طبيعي لحتمية التطور وتغيير الواقع (ص18) .

أمّا في قراءتها لرواية "دار الباشا" لحسن نصر فكانت البداية مع قراءة عتبة النص الأولى ، أيّ العنوان ، انطلاقاً ممّا يميّزه على مستوى كثافة الدلالة والإنتاج ، على مستوى توليد العديد من المعاني المضمرة في النص . إلى جانب ذلك تبحث الناقدة في تكون السيرة الذاتية في هذا النص ، انطلاقاً من قراءتها لمجموعة من القرائن النصّية والحكاية ، وهي ما جعل « دار الباشا » في نظرها ، أقرب إلى رواية الترجمة الذاتية منها إلى الترجمة الصرف ، بالنظر إلى كون حسن نصر مزج

فيها الواقع بالخيال و الخيال بالواقع إلى درجة يعسر الفصل بينهما ، وإن كانت الناقدة تخلص إلى اعتبار « دار الباشا » لم تتوقف عند حدود كتابة الترجمة الذاتية لصاحبها وإنما هي في الباطن ، « ترجمة ذاتية » لحال الأمة العربية وهي تتعثر في خطاها تجر أذيال الماضي ، أذيال الذل و الخطيئة ، رواسب الجهل و فقدان الثقة بالنفس ، نتيجة الأوضاع السائدة آنذاك (ص 22)

انطلاقاً من هذا الاعتبار ، تنتقل الباحثة إلى قراءة الفضاء الحكائي العام للنص ، من خلال الشخصوس ومن خلال جيل بكامله ، وهو الجيل الذي تشكل المرأة أحد مكوناته الأساسية ، الأمر الذي جعل هذا النص براهن ليس فقط على الهم الفردي ، لكن أيضا على الهم الجماعي العام الذي تلخصه الناقدة في تأزم الأوضاع الاجتماعية و السياسية و الحضارية (30) .

تقرأ في هذا الكتاب أيضا تحليلا للمجموعة القصصية « خيول الفجر » لحسن نصر ، مؤلف الرواية السابقة . استهلكتها الناقدة بالتوقف أيضا عند عنوان هذه المجموعة ، لكي تنتقل بعد ذلك إلى إنجاز قراءة في طريقة تأمل حسن نصر للواقع الراهن و لطريقة مسألتته له ، بما أنه راهن يتسم بالخبرة و الرعب و الذعر و الذهول و التكهرب و الوجوم و الصمت المتوج بصيحات استنكار من كل جهة ، وبضيق مذهل ، هو حاضر بجسده ، غائب بروحه (35) . كما أنه راهن يشكل امتدادا لذلك الراهن كما صاغته رواية « دار الباشا »

ومن الأشياء الجميلة في هذا الكتاب الذي يحمل كعنوان له « قراءات في الأدب التونسي المعاصر » إدراج الناقدة للمجموعة القصصية « نار لشتاء القلب » للكتاب العربي عبد الرحمان مجيد الربيعي في خانة الأدب التونسي ، انطلاقاً من طبيعة العلاقة الذاتية و الوجدانية و الثقافية التي تربطه بتونس . و تجدر الإشارة ، بالتالي ، إلى أن المجموعة القصصية السابقة قد حظيت بالكثير من الاهتمام النقدي و التحليلي داخل الوطن العربي . وتعتبر الناقدة الزوارق من بين النقاد

الذين قرأوا هذه المجموعة و توقفوا عند العديد من المميزات و الخصائص الكتابية و الدلالية فيها ، على اعتبار أنها مجموعة قصصية تصوغ قصة الذات في انصهارها بالهم الجماعي ، ممزوجة بالوجع و الألم اليومي الذي يشكل إيقاع حياتنا العربية في مغامرتها الواعية التي لا تعرف الخوف ، ولا التراجع (ص48) . و تحتل المرأة في نفس المجموعة مكانة مرموقة ، وذلك كلما استولى على الرجل (الكاتب الضيق والاختناق والضجر (ص 50) . كما أن الرجل يشكل ملاذ المرأة في هذا الكون وسيناءها في هذه الوحشة التي تحاصرها وهي تصطلي بجحيم الوحشة والفراغ . وقد احتل سؤال التجنيس في هذه المجموعة القصصية مكانة خاصة أيضا داخل هذه القراءة ، على اعتبار أن « نار شفاء القلب » من وجهة نظر الناقدة ، وإن بدت في الظاهر مجموعة قصصية مستقلة الواحدة عن الأخرى ، فإنها في الحقيقة قريبة ، من زاوية أخرى ، من الترجمة الذاتية التي استعان صاحبها في كتابتها بالسيرة الذاتية ، وهو مؤشر استخلصته الناقدة انطلاقا من تجليات سؤال الإعتقال والحرية خصوصا في هذه المجموعة وفي الكتابات الربيعية عموما . إلى جانب ذلك توقفت الناقدة عند العديد من الإشكاليات العامة التي تكشف عنها هذه المجموعة كالحرية والجشع والتخدي والمقاومة والحلم ، من ثمة فإن هذه المجموعة، تضيف الناقدة ، تمثّل قصص الحاضر وأسئلة وتصور فجيرة جيل ، فالإنسان فيها مسكون بهواجس عدة . الحرب وويلاتها والخوف والذعر ، والبرد المدمر للذات ، والتزيف العربي الذي لا يقف عن حدّ هذا القهر الذي ينتابنا من الخارج ولا نجد له تفسيراً ، المنطق المغالط الذي نتلقاه يوميا ، ولا نجد له تبريرا ... (ص 62) .

إلى جانب الرواية والقصة القصيرة ، يحضر الشعر ضمن قراءات الناقدة الزاوي ، من خلال أشعار ماريو سكاليزي وجميلة الماجري . في القراءة الشعرية الأولى ترصد الناقدة صورة « الأنثى » عند ماريو سكاليزي من خلال الأم والأخت والحبيبة ، في ارتباطهن بالعديد من الإغرامات والأسئلة الذاتية والنفسية والاجتماعية والوجودية ، بالنظر إلى ما اكتنف حياة الشاعر من أحداث ووقائع متوترة مع الذات

مع المجتمع . وتبقى المرأة هي الهاجس الرئيسي في حياة الشاعر ماريو سكاليزي، بما هي تجسيد للأومة والحب والحلم والتخيل ...

أما بالنسبة << لديوان النساء >> لجميلة الماجري ، فقد توقفت الناقدة عند قراءة غلاف الديوان ، بما يشتمل عليه من عنوان وصورة ، ومن بين أهم خصائص الكتابة الشعرية في هذا الديوان ، تشير الناقدة إلى التجديد والطرافة فيما يخص تناول بعض المواضيع الكامنة في أعماقنا والمهملة من طرف الشعراء ، مثل عادة التصفيح أو دخول الحمام وزيارة المزارات ، وكل ذلك هو نتيجة البحث الملح عن عالم شعري تكتب فيه الشاعرة قصائدها لتعبر عن ذاتها وتعمل في لحظات صمتها على تأكيد حضورها العربي ، والانتقال بين بعض المدن العربية << مدن الذاكرة >> . كما أن استلهاهم جميلة الماجري للتراث ، تضيف الناقدة ، هو عملية واعية ووسيلة لتأصيل الكيان ، من منطلق إيمانها بالتفاعل مع واقعها والشهادة على عصرها .

وبعد توقفها عند العديد من الثنائيات والمفارقات في الديوان وأبضا عندما سمته باشكالية القراءة الشعرية ، انتقلت الناقدة إلى الكشف عن بعض وظائف الكتابة الشعرية عند الماجري ، سواء تعلق الأمر باختراق العادي والمألوف من المواضيع ، والتمرد والرفض لبعض العادات والتقاليد التي أصبحت المرأة أجيالا ، وقتلت فيها انسانيته ، وحرمتها من حق مشروع لتثبيت كيانها (ص 89) . وهو ما جعل << ديوان النساء >> مسكونا بهاجس التجديد والمغايرة معنى ومبنى ، ومشحونا بقدرة فائقة على الإيحاء وتوليد الصورة هكذا ، إذن يكون كتاب << قراءات في الأدب التونسي المعاصر >> لغوزية الزاوق قد قدم لنا نوعين من المتعة ، متعة قراءته ومتعة قراءة النصوص المحللة من خلاله ، وهو بذلك يضعنا أمام مغامرة جديدة مع القراءة النقدية والتحليل النصي ، والتي تساهم المرأة العربية ، بدورها ، في ترسيخها إلى جانب ما تبذعه من نصوص أدبية . فبالنظر إلى كتابات المرأة في المغرب العربي نجد أن تونس تبقى البلد الأوّل ، حاليًا الذي حقّق قفزة كمية ونوعية في هذا المجال ، مقارنة ببقية الأقطار المغاربية الأخرى ، وهو دليل آخر على أهمية حضور المرأة ككاتبة وناقدة هناك ...

البطل في رواية (الوشم) لعبد الرحمن مجيد الربيعي أنا ... كريم الناصري

بقلم : محمد الراوي

مصر

إن كريم الناصري هو أنا . لا بد أن أنه هنا إلى أن الشخصية الأولى والأقرب في كل ما كتب تمثل في أنا ، سواء ذكر اسمي أو لم يذكر . لا الكاتب بل الإنسان في كل ممارساتي ومعايشتاتي في كل كبرياتي ونكوصي ، انتصاراتي وهزائمي . لذلك فأنني حريص على اغناء هذه (أنا) من خلال القراءة والارتقاء في التجربة والمغامرة والدخول في قلب العالم لا التوقف عند ضيقه ، أفعل هذا مهما كان الثمن الذي أدفعه وفق قوانين الآخرين التي تنظم قلوبهم البلهاء ما دامت النتيجة في الأخير لصالح الكتابة التي هي همي الأول وقضيتي الأولى .

إن كريم الناصري هو أنا ، لكنه ليس أنا ايضا . إنني بطل رواية لا سيرة ذاتية ، لكنها أيضا سيرتي الذاتية في ثوب روائي . انني استحضر ذاتي ، وهذا لا مفر منه . ويأتي مع ذاتي التي استحضرتها كل العالم الذي أعيش فيه من بلدان ولدت وعشت فيها ومن اصدقاء ومحبين وعشاق . هكذا أنا كريم الناصري ، أو اي اسم تطلقونه عليّ . إنني واحد في الكل والكل في واحد . إن معاناتي أنا كريم الناصري ، صارت بالنسبة لي كالوشم الذي يدمغ الجلد فلا يحويه الزمن . إن الوشم لا يمكن محو آثاره إلا بسلخ الجلد ، بتغييره . وجلدي لا يتغير ، قد يرق وقد يغلف ولكن لا يتغير ، ولم تستطع طبيعة الحياة التي عشتها أن تغيره ، ولم تؤثر فيه حياة المعتقل ، وإن كان جلدي قد اشتد غلظة بعد خروجي من المعتقل .

إنني لا أتحدث عن الرواية التي أنا بطلها كوثيقة تاريخية . حقيقة إنها وثيقة تاريخية تشهد على عصر صعب عشته ، وعاشه آخرون في كل البقاع العربية ، لكنني لن أتوقف عند هذا المعنى ، الوثيقة . فقد نال هذا المعنى اهتماما كبيرا من الدارسين والنقاد في دراساتهم . إنني أريد أن أتحدث عن نفسي ، أنا كريم الناصري ، كإنسان ، كشخصية ثائرة أو متمردة ، لقد توردت على نفسي أكثر مما توردت على أوضاع وأشياء ، كان يجب تغييرها ، لقد لبست ثوب الشائر في الوشم ، ولكن أي شائر ، فالشائر الحقيقي لا يعرف أحاسيس الاشتمزاز ولا التوقف ليمسح نفسه بعض الوقت للندم على ما اقترفت يداه ، وعلى ما اعتنقه من أفكار .

كنت أنا كريم الناصري حالما كبيرا ، و الثورة هي طريق الحلم ، تحقيق الحلم هكذا علموني ، و هكذا كنت أعرف ، لكنني أصبت بانكسار ، وكانت الحقيقة تختلف تماما عن الواقع ، فابتليت بحالة شديدة من الاشتمزاز ، من نفسي أولا ، ومن كل شيء . يقع تحت بصري وسمعي ، حيث لم أعد مؤمنا بالمثل العليا التي طالما كنت أحلم بها ، وكفرت بالالتزام السياسي الذي عاثت منه فترك في نفسي ما يشبه الوشم ، وشم لا يدمع الجلد ، بل يدمع أفكارا و أحاسيسي بعد أن تسربت روحي المعنوية وأضحت في الحضيض .

كنت أنا كريم الناصري ، أحب التغيير كما أحب السفر ، التغيير في كل شيء ، وليس في الأدب فقط . كنت أحلم بأن أكون ، و أن أكون ثوريا في قلب صفوف الشعب ، كنت اعتقد أنه لا يكفي المرء أن يكون كاتبا فقط ، مهما كانت قيمته ، بل عليه أن يكون شريفا راسخا في ضمير شعبه . لكنني أنا كريم الناصري ، لم أكن شريفا راسخا ، و لم أكن في ضمير شعبي لحظة واحدة . كنت أرى أن العمل السياسي هو الأقرب إلى تحقيق هذا الحلم . لبست ثوب الشائر في الوشم فانهزمت ، وها أنا أحلم بأن أرتدي ثوب شخصية الدكتاتور ، فهل القى الهزيمة مرة أخرى ، أم أن شخصية الدكتاتور سوف تجعلني أعيش بأحلامي حتى ولو كانت خادعة و مزيفة .

إنني أنا كريم الناصري بطل اللوشم على سن ورمح ، لم أكن منتميا حقيقة إلى الحزب الشيوعي ، ولا إلى حزب من الأحزاب . طبيعتي ترفض الانتماء والاصطفاف ، طبيعتي تميل إلى التمرد . لكن ما الفرق بين الثائر والمتمرد ؟

إن الثائر يشور على شيء معين ، على وضع لا يرتضيه . أما المتمرد فهو ضد القيود والنظام والقوانين . إن الوصول إلى حالة المتمرد تخطي لحالة الثائر . وأنا ثرت على الواقع السياسي لما تحوّل من جريمة سياسية إلى جريمة أخلاقية . ثرت من أجل التشهير بالقمع ووسائله في تدمير الإنسان وتحويله إلى حيوان يقطعون لسانه إذا صرخ وبيسرون أطرافه إذا حاول الاعتراض أو الهرب . ولكن أي ثائر وقد أعلنت على الملأ براءتي ، ولماذا لا أعلن براءتي و كل المشفقين من حولي يفقدون أصواتهم وفعاليتهم وقت الانكسار ؟

أنا كريم الناصري ، رأي الجميع قلبي مفتوحا مباحا للعيون ، الجميع يعرفون من أنا منذ يوم ولادتي حتى المكان الذي أعيش فيه اليوم ، منذ ولدت في الناصرية عام 1939 على ضفة نهر الفرات ، حتى استقر بي المقام في ضاحية باردو (تونس العاصمة) . أنا كريم الناصري ، إنسان حقيقي ، قد تلتقون بمن يشبهني إذا صادفكم (رجب) أو (شرف) ، أو غيرهما من أمثالي . لكنكم ستتعرفون على شخصيتي من صوتي ، فصوتي أعلى ، ومشواري أطول ، لأن عمري أعمق ، واشمئزازي مرير كالوشم تحت الجلد علمني عمي الشجاعة ، لكن أمي علمتني الخوف ، فكبرت وأنا بين بين . عملت في الصحف والمجلات وصرت كاتبا ، بل وشاعرا أيضا ، على الورق وفي حياتي الخاصة . لي طقوسي وعلاقاتي الخاصة ، فأنا جئت إلى هذه الحياة خلطا من الحلم والجنون والعشق والبوهيمية والفوضى والنظام أيضا .

أنا كريم الناصري الذي هرب من يسرى الطالبة الجميلة ذات البهاء ، خوفا عليها مني ، فتاريخي ملطخ مهزوم . أنا كريم الناصري المتردد أعجز عن اتخاذ

القرار المناسب في الوقت المناسب ، أتخلّى عن أشياء ذات قيمة و علاقات ثمينة لمجرد أنني عجزت عن التمسك بها ، فضاعت مني أسيل عمران الفنانة المثقفة التي احببتي بحق ، وارتقت في وحل شهرزاد الراقصة ، وكادت روحي تخرج من حلقي قرفا لما اقتربت من البغي السمينّة ذات العنق المكتنز المرشوق بالوشم و فخذيهما المطرزين بالوشم . كادت علاقاتي بمرم تحولني إلى قاتل . إن علاقاتي المتعددة بالنساء جعلت البعض يتهموني بأنّي لا أعرف الحب الحقيقي الذي يملأ القلب والعين . لا أنكر أنّ علاقاتي بالمرأة عموما ولفترة طويلة من الوقت كانت متعدّدة . لو كنت أبحث عن الحب بمعناه الذي نعرفه جميعا لتوقف سعبي عند واحدة ورّما كانت هذه الواحدة هي أسيل عمران ، أو رّما كانت يسري الطالبة ، لكنّي كنت في سعبي إليهنّ أبحث عن نفسي لا عنهنّ. فأنا لا أحبّ أحدا ولا أبحث عن أحد سوى ذاتي . كنت أبحث عن (أنائي) ، كنت أبحث عن ذاتي . إنّ ذاتي ليست في أبدان النساء ولا في قلوبهنّ ، إنّها بداخلي أنا ، وكنت أبحث عنّ يهزّها وهي بداخلي فتصحو . كنت أبحث عن مرآة ، هذا المرآة أعرف أنّه بداخلي ، داخلي أنا وحدي ، أنا كريم الناصري . إنّنا نحبّ ونتغيّر مع كلّ علاقة حبّ . هكذا يبدو أحيانا ، نتغيّر ، لكننا لا نكف عن الحبّ أبدا . هذا رأيي ، وهذه هي حياتي ، حياة كريم الناصري . لأنّ الأنا عندي لن تبقى مستكينة خاصّة بعد فترة إذلالها في المعتقل الذي عشت فيه شهورا وكأنّها العمركله . إنّ ذاتي تريد أن تحقق نفسها ، فتعيد تجربة الحبّ مرّة أخرى ، ولا مانع أن تعيده مرّات ومرّات . إنّ الحبّ بالنسبة إلى واحد مثلي لعبة مثيرة جادة وضرورية حتّى لو كنت أتلقّى في جحيم الحبّ، وهي في نفس الوقت رحلة بحث مرهقة مشحونة بالعذابات . أرى أنا كريم الناصري، أنّ تقلّبات القلب أو العاطفة ليست علامة على الخفّة أو المراهقة، بل هي رحلة أبدية مستمرة دائما وأبدا، تبحث فيها الأنا عن الكمال والوحدة التي لن تتحقّق أبدا، والمحاولات لا تتوقّف أبدا أيضا. عيبي الوحيد ، أنا كريم الناصري ، أنّ فضائي الداخلي كان يرفض أيّ جسم غريب يدخل إليه ، حتّى ولو رغبت في ذلك، فقد كان فضائي مكتفيا بذاته . فقط في حالة مريم التي كانت تمتلك زوجا وبتين وعشيقا ، هنا اختلف الأمر ، وكادت تؤدّي بي موارد التهلكة . فقد كنت أنا

كريم الناصري أغار من حياتها بعد أن لمست أنها من الممكن أن تكتفي بنفسها
وتمنط حياتها الخاص ، وقد أعباني عجزني عن استمالتها والاستيلاء عليها
وجعلها تابعة ، رغم أنها كانت مستباحة . فاماً أن أجعلها تابعة لي ، خاضعة لي
، أو أقوم بتدميرها . إن فشل الأنا في الاكتفاء بنفسها عند الضرورة أمام الأنا
الأخرى ، يؤدي إلى الإدمان والانتحار أو القتل . كنت مع مريم رجلاً ذا قوة منعزلة
داخل قوتها الذاتية بعيدة عن النظام ، لا علاقة لها بمجتمع أو قانون خارج قانونها
هي ، قانون الذات الذي يبيع لها أن تفعل ما تريد بلا أدنى التزام بالعالم الخارجي
.إنها العزلة المحضة والوحدة التي تلتهم نفسها ، وتعبير عن نفسها في نفس الوقت
و تلتهم ما تلمسه أو تخترقه ، أو تلتهم نفسها . هذه هي الدوافع والأسباب التي
كانت تكمن في علاقتي المتعددة مع أسيل عمران و مريم و يسرى بكل ما فيها من
متناقضات أنا كريم الناصري ، أسأل نفس الأسئلة التي القيتها على نفسي أمام
صديقي حسون : هل بالامكان أن تكون المرأة تعويضاً كاملاً عن الحنية السياسية ؟
وهل تكفي لأن تكون ضماً لكل الجراح ؟ ولكن أية امرأة تقدم ذلك ؟ (إنني
خائف يا حسون ، خائف من عشرة أخرى لن أنهض بعدها) .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

إنه صديقي حسون الذي شاركني الحياة والمعتقل لم يستطع أن يجيب على
تساؤلاتي. لكنه إذا ظهر لي في الوقت الحالي فسوف يدرك أنني عثرت على الاجابة.

المصادر:

1. مؤلفات الأديب عبد الرحمان مجيد الربيعي :
- * رواية الوشم - دارالطليعة - بيروت طبعة عام 1978
- * رؤى و ظلال - نقوش عربية - تونس عام 1994
- * من النافذة إلى الأفق - مؤسسة سعيدان - تونس عام 1995
- * من سومر إلى قرطاج - دار المعارف للطباعة و النشر - تونس عام 1997

2. الحب : الوجه الآخر - دراسة لمحمد الراوي - مخطوط لم ينشر
(رجب) : بطل رواية (شرق المتوسط) لعبد الرحمان منيف
(شرف) : بطل رواية (شرف) لصنع الله ابراهيم .

ملحق :

إلى الصديق العزيز

الأديب العربي الكبير .. كريم الناصري !!

بعد التحية

يسعدني أن أكتب إليك لأول مرة !! و الفضل يرجع إلى صديقنا المشترك الأديب
عبد الرحمن مجيد الربيعي . فقد اتاح لي فرصة التعرف عليك من خلال روايته «
الوشم » ، ومن خلال شهاداته و حواراته المنشورة في كتبه : رؤى وظلال - من
النافذة إلى الأفق / من سومر إلى قوطاج .
وقد قمت برسم صورتك بلامحها الخارجية و الداخلية عن طريق تجميع عدد كبير
من الأجزاء المتشظية في هذه الكتب . وقد ملأت الشغرات ، خاصة الشغرات
الداخلية الغائرة بما يتفق مع الملامح الخارجية ، وبما يتلاءم مع أفكارك و مواقفك
الشخصية ككاتب يسبح في خضم الحياة العربية .

أعرف أن هناك امتدادات أخرى ضافية في شخصيتك ، مبثوثة في روايات
أخرى مثل القمر و الأسوار و عيون في الحلم للروائي الربيعي ، وفي روايات لم
أقرأها مثل (الأنهار) و (خطوط الطول ... خطوط العرض) . فمعظم أعمال
الأديب الربيعي هي انعكاس لحياتك . وكل نما فعلته هو التقاط صورة صوتية
رأسية لك ... اخترت أنا زاويتها !!

مع تحياتي

محمد الراوي

منور صمادح شاعر الثورة

بقلم : كوثر البحياوي

تمهيد :

منور صمادح شاعر يصحّ في شعره أن نقول أنه مدونة الذاكرة والتاريخ التونسي في فترة هامة من حياة هذا المجتمع حافلة بالتحوّلات السياسية والاجتماعية الخطيرة في المنتصف الأول من القرن العشرين . مرحلة الاستعمار والكفاح الوطني . هو شاعر عصامي موهوب حياته مثل للعزيمة والصمود على الرغم مما انتابه من منغصات ...

كان منور صمادح مع الثورة منذ بدايتها حتّى أنّه كان يلقب بفتى الثورة فأوّل قافية كتبها كانت تمجيد الثورة وتبشيرا بيومها الآتي وفي فترة وجيزة أصبح منور شاعر العمال بلامنازع . فقد كانت معظم دواوينه الصغيرة التي أصدرها في مطلع الخمسينات ، وصادرت السلط الاستعمارية بعضها تلهج بانصاف المحتاجين وبالتحريض على الثورة والإشادة بجهود أولئك اللذين يدفعون عجلة التاريخ نحو الاستقلال الوطني (1) وذلك هو شاعر الثورة منور صمادح الذي تتوزّع مضامين أعماله الشعرية إلى :

* مضامين وجدانية : عاطفية ذاتية يبدو فيها تأثير صمادح بالشعر الرومانسي وخاصة شعر الشابي .

* مضامين غنائية: تجلّو اهتمامه بالموسيقى والطرب أفرد لها ديوانه «أدب وطرب» .
* مضامين سياسية اجتماعية : وهي الطاغية على جملة دواوينه الشعرية التزم فيها مواكبة قضايا شعبية والدفاع عنها في نفس ثوري درامي : دواوين : الفردوس المغتصب ، فجر الحياة . صراع ، حرب على الجوع ، الشهداء ، فجر التحرير ، مولد التحرير ، ثنائية « المناجل » و « المطارق » ...

1 - كتاب دراسات في الأدب التونسي لمحمد صالح الجابري .

وهذه المضامين الأخيرة هي مدار اهتمامنا في هذا البحث .

* فأين يتجلى مفهوم الثورة في إبداع صمادح تنظيرا وشعرا؟

1 - الالتزام بالوظيفة الثورية للشعر والشاعر :

يقول منور صمادح في مقدمة ديوانه " صراع " محدداً وظيفة الشعر ومهمة الشاعر المعاصر .

« لم يعد الشعر ضرباً من ضروب الترف والمتعة الفنية ولم يعد الشاعر العربي ذلك وجوده وأحسن بما يدور حوله من أحداث بنوية و قومية و عالمية و شعر يواجه المفروض الذي يؤديه نحو الأمة باعتبارها الركن الأساسي الذي يعتمد عليه لخدمة قضايا الانسان العامة » (1)

إن هذه الوظيفة الجديدة للشعر و الشاعر التي صاغها صمادح نفيًا و اثباتًا منبعا إيمان الشاعر العميق بأهمية العلاقة الجدلية و الحميمة بين المعاصر وواقعه خاصة في الاطار الثوري الجديد الذي عرفته الأمة العربية في مرحلة استعمارها و كفاحها حتى استقلالها هذا الإيمان الذي تجلى في نصوص نظرية صدر بها الشاعر مقدمات دواوينه تجلو مقاهيمه للشعر و الشاعر و لحدث الكتابة و تجد تجسيدا لها في ابداعه الشعري الذي عرفه الشاعر انطلاقا من مقاصده و غايته التي هي حتما ثورية :

أ - مفهوم الشعر :

يعرف صمادح الشعر لا انطلاقا من ماهيته كإبداع أدبي متميز بل انطلاقا من وظائفه الاجتماعية و السياسية و الأخلاقية في خدمة المجتمع و قضايا ذلك جعل مادة الشعر الحياة :

« حياتنا اليومية هي المادة الأصلية للأدب » (2) و جعل بقا « رهين فهم و تفاعل الشعب ، الجماعة معه في إطار ثوري جديد :

« وفي عدم احساس الشعب ضياع لرسالة الشعر و تمديد في حياة الفكرة القديمة

1. الأعمال الشعرية الكاملة: منور صمادح جمع و تحقيق عبد الرحيم صمادح ص 153 الدار التونسية للنشر. بيت الحكمة .

2. المصدر السابق ص 153 3. المصدر السابق ص 153

الخاطئة التي لا ترى الشعر إلا شيئا كماليا كالحلوى والفواكه وهذا ما لا يرضاه الجيل الجديد الذي يؤمن برسالة الشاعر و يقدر مسؤولية العظمى »

ب - الوظيفة الثورية للشاعر :

لقد ألح صمادح على ضرورة وعي الشاعر بوظيفته الاجتماعية والجماعية خاصة في المرحلة الثورية الحاسمة و يقول معرّفًا الشاعر ملحا على خطورة دوره و فعله في الجماعة .

« الشاعر هو باعث الروح الانشائيّة الثورية في الشعب و باعث الطموح في الجماهير ومصور آمالها و آلامها و رسالة تتطلب منه الاندماج في حياة الأمة ليعرف أسرارها و سيتجلى خفاياها و شدّ انتباهها سائرا بها إلى مطامحها المحتومة . » (1)

وهذه المفاهيم التي صاغها صمادح لتنظير الشعر و الشاعر مفاهيم جديدة بل وثورية في عصره لأنّه قطع بها مع ما ساد الشعر التونسي في مطلع ق 20 من كلاسيكية مقلدة أو رومنتسية حاملة جائزة وكان من طلائع جيل آمن بالدور الطلائعي للشاعر هذا الجيل الذي : « نزع هذا الجيل عنه الخوف و تسليح بالجرأة فكتب في نقد السياسة و في تأييد كفاح الشعوب المضطهدة و مباركة ثوراتها و كتب عن الفلاح والعامل و ندّد بالحييف و الظلم و امتهان الانسان أينما وجد ونفض عن الشعر غبار التبعية المطلقة ... » (2) .

فكيف تتجلى مفاهيم الثورة في ابداعه الشعري ؟

2. مظاهر الثورة في شعر صمادح :

لقد أصل منور صمادح في فاتحة ديوانه « فجر الحياة » شعرا ما آمن به نظريا من الوظيفة الثورية و العصرية للشعر و الشاعر :

1. الأعمال اشعرية الكامل لمنور صمادح ص 154 .

2. محمد صالح المجابري : « ديوان الشعر التونسي . تراجم و مخترات » .

ديوان شعري جمار توهجت من فؤادي
وزفرة من حنيني ومنحة من جهادي
وأنته من ضميري علي شقاء العباد
وأغنيات حباري و ثورة في اقتصاد
أودعته كل حبي لأمتي و بلادي (3)

فكان شعره يتلظى سعيرا إذا كان للحرب و الفداء و هو زهو و بطولة إن كان حماسة و افتخارا ذلك أن قصائد مجموعاته الشعرية ترتبط في جلها بمناسبات وطنية هامة بل إن منها ما يتجاوز المحلية إلى مباركة الثورة في الوطن العربي وخارجه (فلسطين . الجزائر جنوب افريقيا ولعلّ الجدول التالي يوضّح ذلك)

المجموعات الشعرية :	المناسبة
الفردوس المغتصب	1955 : ذكرى تأبين حشاد و شهداء الوطن
فجر الحياة	1955 : تأبين حشاد و شهداء الوطن
حرب على الجوع	1955 : التفاعل مع الفئات الضعيفة من شرائح الشعب الكادح .
صراع	1965 : من وحي صراع الشعب ونضاله .
الشهداء	1956 : ملحمة وطنية تمجّد شهداء الاستقلال .
مولد التحرير	1958 : من وحي أحداث (1957 . 1958) أحداث الاستقلال .
نسر و نصر	1972 : التفاعل مع الحركات الثورية التحررية وأهمّها الثورة الفلسطينية .
المناجل و المطارق	1972 : ملحمة إنسانية : ثورة على واقع قائم رفضه الشاعر مبشرا بجيلاد جديد .

* فكيف تتوزّع هذه المضامين الشعرية التي بها ينخرط الشعر والشاعر في الإطار الثوري لشعبه ؟

3 - ديوان "فجر الحياة" : المجموعة الكاملة لمؤر صمادح تحقيق عبد الرحيم صمادح .

أ - المضامين الثورية السياسية :

وهي أوسع المضامين انتشارا في شعر صامح وتبدى في :

- وصف الشاعر لمجزات الثورة .

- تمجيد أبطالها .

- تأييد شهداءها .

- استشراف مستقبلها

سلاحه في ذلك استنهاض الهمم والعزائم وفتح الضمائر إذ الثورة عنده إيمان وقيم وهي كذلك فعل وإنجاز حينما يدعو إلى أن تكون ثورة مسلحة فتأكل كما في قصائد : " ذكرى حشاد ، ثائرون ، صرخة الأحرار " من ديوان فجرالحياة :

سنشئها حمراء تعصف بالقيود فتتكسر
أرواحنا تهدي البلاد فنستقل وتزدهر

ب - المضامين الثورية الاجتماعية :

تتصل بتصوير الآفات الاجتماعية التي يتخبط فيها مجتمعه من تخلف وجهل وفقر وجوع وعانى منها الشاعر العصامي التكوين الكثير ولعل ديوانه " حرب على الجوع " خير مصور للبؤس الاجتماعي ومواقف الشاعر الثورية منه :

حسبنا جوعا وتشريدا كفى ما أصاب الشعب من حيف وضر
أي عز إن بقينا هكذا أي تحرير ؟ ألا فلنعتبر !
بعضهم قبصر في صولته وجماعات من الجوع تخر

ج - المضامين الثورية الفكرية والأخلاقية :

وهي مضامين تتصل بفساد العلم ومثليه في عصره وبانقلاب القيم في مجتمع جاهل ينشد حياة جديدة :

سئم النشء علوما لم تعد تفتح فكره
وانبرى صديان للنور الذي دوج عمره
جانح الرغبة قد أفعم بالآمال صدره
فجری یا تونس المجد عيون العلم ثرّه
وابلغي أوجك في ظل الشباب الحر حرّه

ذلك هو شعر منور صمادح شعر الثورة في أوسع معانيها ارتبط صاحبه بمناسبات وطنية سياسية ولكنه ارتقى بشعره عن التمجيد الفج والمدح المغالي لأهل السياسة و رجالها بل كان ثائرا بداية و نهاية وكان أشد ثورة حينما خاب أمله في شعر بلاده بعد استقلالها و كفاحها : «الصدق في القول و الاخلاص في العمل» .

الخصامة :

إن ارتباط منور صمادح بواقع مجتمعه في أربعينات و خمسينات القرن سنوات العطاء و البذل و سنوات الثورة : تنظيرا أو إصلاحا أثر على نوعية الخطاب الشعري عنده الذي تميز بأنه :

- شعر حادث ووقائع .

- شعر خطابه و مباشرة

- واقعية الصور التي نجد تحققها و مراجعها في الواقع العيني حول الشاعر .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

- شعر وصف و تقرير .
ولعل هذه المفارقة بين مضمون ثوري و شكل كانت ثوريه هادئة احترمت منجزات القصيدة الكلاسيكية يعود إلى طبيعة ثقافية صمادح العصامي التكوين الذي لم يكن قادرا على استيعاب قضايا القصيدة الحديثة خاصة في بداياتها في مرحلة خمسينات القرن .

قلبية

شعر : عبد المجيد التلاتلي

1

من ذا الذي لاتنفعل حواسه بالصدى البليغ
الذي يرجعه غريب ملامسات الحياة بالأرض ؟
لعقم الأناسي دلالته : فالآفاق ذي

في عصمة من أي تشويه

أنتى لكم بموقع تجدونه غير ذا
أشد ضياء من رأس افريقيا ذا ؟
<http://Archivebeta.sakuracolor.com>

فأنى والله لقرب ساعة العناق الأزرق أبتهج
وينشد البحر نشيده الأبدى على جبهة تتوهج
هنا بهيمنبرج لاينفك هيكله يشد

الحراسة على سلامةالضفاف الزرقاء

يا من حياه الحظ ، يا من اصطفاه الله

قم للاعتكاف به متأملا في بدء الخلق البديع !

وذق في نجوى مناجاتك طراوة البحر

ثم أمس ندى في ندى المساء

وقدم نفسك قربانا لأنفاس الأجواء

بلغ اختمار الحواس والذوات ذروته
 يا مستحم ، ادخل مياه السعادة دخول العجبر
 الباحث عن منات الأشكال المتحركة ؟
 هي ذي **قلبية** عند قدمي ، عند الأقدام
 حلم تتلاشى في ثناياه الأوهام
 والشرع على المياه مضتحيك خيوط الحانها
 بينما الرمال راحت تشاهد تخابل شعورها
 فهنا وهناك تطفو أطياف صخور عشوائية
 كأنها ضرب من الوحوش البحرية
 والفلك إذ هي تغفو على الرمال والحصى
 تكلم الأبصار بالوانها الثابتة
 من هنا تبتدى أفريقيا
 من هنا ينطلق اللون الأزرق
 من هنا تنطلق حركات الذهاب المتواصل
 من هنا تعلن الحسابات عن توقفها
 من هنا تنبع مياه المرجان والذهب
قلبية ! ما لها تتغامى بأناة
 على ربح لافحة في جو شمس ساطعه ؟
 هي الشربة عفاها بحياة متواضعة
 لا تعباً بزوايع الدهر المتواصله

ولا بتناكس نهر الأعمار !
ومنارتين قائمتين في بياضها تراهما
فتخالهما تلتقطان من بعيد
أنغام مزامير عرائس البحر الساحرة
وذوات الألوان اللبنيّة اللآثي يعانين خبالا
في دروب هذا النعيم العقيم
وهو في ربوع الطبيعة عميم
ويقدر أعداد السمادل ترى نقطا بيضاء
وسط أعداد الحقول والصنوبر وكأنّها تلوّح
برمز الاجتذاب
على الكراسي أطفال يداعبون طيور الباز
ذات الريش النعيم
وتحيط بنا الرّبي وهي تنتظر بغير اهتمام
صدمة الرّبيع لتأخذ زينتها بعطورها
وألوانها
قلبيبة ! يا فتنة القلب ! ما أروع
رباك في توافّقها وما أعذب « تزاميرك في لحنها !

* ملاحظة : هذا القصيد كتب بالفرنسيّة ونشر سنة 1952 أعجب به الأستاذ أحمد بن جلون من الرباط في المغرب بعد زيارته لقلبيبة مرّتين وباقتراح من صديقه الأستاذ محمد الصادق عيّد اللطيف أقدم على تعريبه وخصّ به مجلة الإنحاف .

الطائر الذي لن يجيء

بقلم : سمير تهيمش

أشعل الآن موقد الروح
مادام الخارج بعيدا عن عمود النور
غارقا في رتيلاء الحبيبات البيضاء...
أجفف بلل الحلم الخارج لتوه
من ضباب الزبد الأزرق
أنفخ فيه من وهج الداخل
سبع مرات ...
أمرر عليه كف القلب
تمسحه بزيت نويميدي أسود
بينما عيناه على الطين الأبيض
تقتفي أثر الكتابات الأولى المنسية...
من الحجر الأول إلى العش المهجور
وإذا نورأزرق لا يأتي من جهة ما
ينصب على الركن الأيسر ممزوجا برائحة مسحوق قرطاجي
فأحاول فتح الباب لأركض نحو الله...
لكنني أعدو تمثالا مشدودا للركن الأيمن
يداه مغروزان بمسمار ورجلاه نابتان في الطين...
وليس سوى عيناه تدوران دوارعذاب
يبحث في القمم الباردة
عن خيال جيفة
أو رائحة نتنة .

ركن الدين يونس
العراق

السواقي التي داهمها النعاس

الصّهاريج العالية

وهي ترفل بالشّموخ الرّطب

أشجارنا المسكينة

إذ ترافقتنا إلى مصائرنا المؤجلة

وأنت ...!

أنت دائما .. تلتفتين معي إلى جهاتي .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

.....

يتها السّاعات المضرجة بالحزن

تقرأ في أذني الطرقات أحيانا

أن آخذ الليل لي ...

آخذه مركبا .

آخذه وأبحر نحو ذات أكثر كمالا

ذات لا يشير إليها رأس سهم

لا يدور حولها طرف فرجال ...

الزّمن .

لا تراها عيون المرأة

ذات عموديّة بعض الشيء .
قرص الشّمس لا ينبغي له أن يدركها
ولا السنونو

ينبغي له ..
أن يبني بيوته قريبا من دخانها
ذات تدير رياحها في كلّ الاتجاهات
.....

يتها السّاعات ..

ليست الاتجاهات ما يمكن أن أسميه
اللعممة

ولا الحلم الأليم .. أنت
ولست أنت

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

تغادريني إلى نظرات ثقيلة
إلى ما أتخيّله ميّتا وشاسعا
وهو حيّ .
إلى ما تتلمسه يداي وهو يتفكك
متأخّرا .

التقيّه على مرمى ألم
قبل نهاية الجدوى
قبل تدشين الولادة الوردية .

لحركة الأرض .

يتها الساعات

ها هو صغيرك يحاصرني

تمسك بعض ريشه أظفاري

حاملا صور بلاد قديمة .

هي ماتبقى منضوء النرجس

ماتبقى منك .

.....

- نامي في عينيّ ..

- إنك لن تنامي .. لأنّها جبلتان ..

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

بالدمع الأسود .

- غادري عينيّ ...

- لن تغادري ...!

لأنّهما مطوّقتان بجاذبيّة أجراسي .

- استيقظي .. إذن .. فيهما ...

- إنك ... لن ...

لأنّهما محجبتان بليل طويل

وضجيج رياح جسديّة .

مشاهدات لموت واحد

شعر : محجوبة الجلاصي

1

أنثى الرِّيح

ضاقت المسافة

بخطواتها ...

والموت بنسج بساط

الرَّحيل ...

والوقت يتعثّر الخطى

والحلم أصبح طاعن في السن

فلا مفرّ من الاندثار

فانثري أيتها الرِّيح

حلمي ...

على الأطفال والعاشقين

2

صدفة رأني

قد عاني لفنجان شاي

على مضض

لبيتّ الدّعوة

تأمل تفاصيل جسدي
حينها باح لي
بأنه إشتهاني
3

شموعك منطفئة
وانتظارك يحترق
توهمين نفسك
وتقولين غدا يأتي
تلمحين ساعي البريد
تشهقين فرحاً
ميراً أمامك
دون أن يتوقف
فحبيبك نسي
عيد ميلادك ...

4

هل يجوز أن
أحلم ...
وأتمنى ...
وأشتهي ...
وأنا على فراش الموت ؟

لا ذاكرة تستردّ صداي

شعر: خالد رداوي

... الريح تعبر الأرض القائمة في سكون مطبق والخوريات

ترحل أنّها تَحترق تَحترق تَحترق

صفحة النّهر لا تحتمل زجاجة فارغة

يا إلهي انتشلني خارجا

ياإلهي انتشلني.. أنّها تَحترق.. الأرض اليباب . ت . س . اليوت

(1)

تكاد لا تأتي إلى زمن

شارد الرّوح

يستوقد أوجاعنا

يستعيد صباحه الطّريّ

يسأل عن النّدى الليلي

والشعاع خلف ياقوت الدفع غارق في خطى الجرح

والينابيع أطعمت قلبي / صمت الماء

وأغلقت شرفتها الغامضة

يا مسافاتا تدخل في الحلم

من أي نافورة ينسكب الضوء

من نومها

من قمر الدجى

من صمت يديها

من نجوم النهر

من ملامح البقايا

أنا أكاد أنحدّر من أنا



<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

أتشقق أرجافة لأناك
والبوار الغريب يختصر الموت
في محو صفاتي
أنا شهقة المعنى خلف المتخيل
لا صوت لي
لا وجه للذين أحبهم
لا موعد للحبيب
لاذكرة تسترد صداي
لا أمدوحة تأخذ مأثمي متى
أنا فكرة الموت تدوسني
فيا أيها العاري مني
وفي داخلي
أنتد خلف امثلولة
تلوذ بي إليك لتقرع الرؤي
مأتم المتنبي
يا صرة عيون الشهداء
هل أتاكم جسما يأخذ شكل ظلي
كونوا معي كتلك الشرائق
لاكون
من يفتت وجه اللغة في خيمتها
من يخادع من
يا أيها الموت المخادع مت
يا شهية انقلاب لغوي
لم ينضج بعد
هل ترملت عتبات المدن الخرساء ؟

هل رأيت القصيدة تهرب منهم؟
هل رأيتني أعشش في متون سدى الليل ؟
البكاء كأنه صوتي
والدمع يدخل في فستق الدمع
يجفف ما ترسمه عيناك
ورائحة الليل قنديل تدخن مخادع الصحو
من سيقطف لشقتيك
أحجيات قبل الواجدات
من يجبئ في الورد نهذا شركسيا
يطير إلى فائحة موعدي معها
من يستوجب قبلة لا تزال سادية
في عروقي منذ عام
من تلتفت حوله ساقها
يذبل في تجاعيدها الزمن الذكوري
الجريح
من يسرح ضفائرها
يأتي كما أتيت ..
(2)
أكاد أتشابه والخوف
والسؤال منكفى
بين عينين مطفئتين
ويقين أخرس ، هل أكتب السواد المتأخم
أو أتوسد قارعة حزني
السطران بينهما فراغ
والقهقهات تنضج تحت دالية الحكم

وأنا أتقيؤ سكرة البارحة
لم أعد أثّرثر ما تمنيته في النسيان
لكنني كنت أمكث ما بين وجهك والردّاذ
أخاتل قلبي
على طرف الفاجعة
والتف حول الحشايا
أدحرجني من أمامي
لتأكلني الأمنية ...
ها هي لا تراني ترتق
شرح حافة الخريف
تتغياً أرجوحة للتداعي
تشبهني النوافذ خلف مدائي الأفاصي
فأشبه لوركا
.. قلت لها : لماذا التحت بك
ولم المس جسمك بعد ؟
لماذا أنا بين ذراعيك غريب كظلي الذي خانني معك
ضميني كثيراً
خبّيني في ذرات روحك
سافري في / توضني من دمي
فأنافي حالة الرؤيا لا أفقه حرير شهوة تنن
أنا أسفق عليّ منك
أنا شبه خطأ مجهول في لغتي
أنا شهبي لنفسني حين أخطؤها
أنا أتخفي في جدائل لفظك لأكون أ ي لون
تحدده الأرض

أنا لغتي عذبتها لأجل عينيك
لأجلي كلمات كلمات كلمات
هذه وأنا رثة لغتي
فلا الفقراء يأخذون بعبادات الموتى
ولا الشعراء مراسيم وهم قديم
(3)

آه وافترس الصباح
أنثر فيروز المعنى
أستعجل حوافر حزني برقة فادحة
كم مرّة تورطت في حلمي
وسألت الأصدقاء عن موتي
وهل بدأوا يؤجرون
عبادة الريح كي أتهدّ
كم مرّة لملت مسودة
الأماكن بعدك
لأصارع وهمي
كم مرّة حاورت صوت الجهات
لأعرف خطيئتي من عينين ساهرتين
تنعسان في مختبل الثوايا
كم تقدمت في حتفي
عبر وهمين يستحضران تعاويذ الرجوع
قلبي أحرق في فلك المعجزة
ومفترق الفراغ
ملامح مطر قادم
كم سيمحو الشمال خضرة دمانني

كم ارتديت فيك رمالا تليق
بانتهاء الظلّ في الماء
كم لامست سماء الله في رخو غنب مقتول
(4) كيف مضى وقد حاصرته يداها
ذراعها غيم يطارده الإحتضان
رضابها حلوى
فيك قميص الوسادة
صدرها ملاءات لوز يحتصر براري الكلام
والحانة العاشرة لا تقبلني عاريا
فأكتب وضح ليلة فائتة
شعرا يشبهني كمجنون شهوتها
أحتفي بوصلي الأخير
وأنعري مدهوشا بصمتها المطرد
كانت هنا
تعيد شمسا من فجيرة الصهيل
وأنا شرفات أبجدية
تفتح بوابة الوجد المعتل
لكنني ملزم بالخراب
والشعر يقتله اللاجدوى
فأختلس فرحا وحشياً
لاملاً عتبات الغياب حماقات معلنة
أنا أفترس طريقي شوكا
متشحا بالكآبة
أنا لابدّ لي من أنا
كي أنعم في التهلكة !!؟

ما الحقيقة

شعر : نعيمة عويشاوي

تصدير : قيل يا حلاج ما الحقيقة ... قال الحقيقة ماترى
فكان مصولوبا ...

صه ! حفيف قادم من خلف المدى ..
من نجمة خرساء بالكلمات آفلة
صه !

وقع حذائها يندق أجراسي
ويعلن قسيس كنائسي
<http://Archivebeta.Saknet.com>

أنها صلاة ... لا تحترم مواقيت الصلاة
لكنها ... حين تطلّ .. تمزّق صمت المندنة ..
صه .. أطياها من السور المسيح بهشيم الأشواك
تقترب ..

تزف لمرافئ السكينة بداخلي
بالحروف حبلى بسياط القوافي مكبلة ...
صه !.. تأهب لمحفل الخرساء جائما
ومن لمسات نداها على الشفاه .. انتبه
فقد تنطق الخرساء من لحظ الردى

وتسكب الدوالي المعتقة
خذ من نبضات الحلاج قلما
ومن أشلانه.. ورقه..
دون ما طاب قطافه
من حوى الكلمات... وأحفظ منه النوى لا تبعثره
قد تنال السبع العجاف
وتتاكل جثة الحلاج... بين مخالب المقبره
خذ من خرساء الكلمات
ما تشذ القرائح... عن مقصده
قد ينفذ الكلام... ويظل منه
ما وقف في وجه العدالة مشتبّه
صه... فلن تتهم بجريمة اقترقتها
بفتاة الريح مية اغتصبتها
صه..
وقع حوافرها يغزو مدائني
أسكب دمى حبرا... والظلمة محبرة
ومن الفراغ...
أخطّ بعض الكلمات...
في الصّباح.. تعلن الإداعات انتحارها
تنقل الجرائد خبر موتها
مية انتحرت
بين أمواج الرّدى
وخلف حجاب العتمه

مدينة الليل



شعر : بسام صالح مهدي
العراق

تجرني خيل أيامي إلى طرق
قد عفرت وجه أعوامي حوافرها
واعيني عصفت ريح البكاء بها
فغادرت عن مراسيها بواخرها
أظافر لعروس لونت بدمي
لأنها تعبت مما يشاجرها
في غربة الدار روي أطرق وبكت
ولم تجد أي مخلوق يحاورها
لأنها لم تجد جسما يؤمنها
أرضا.. فأنني في صمت أغادرها
تغادر الأرض أقدامي وإن وطئت
لرحلة كنت في نفسي أسافرها
أعلق الزاد في غصن على كتفي
وفي طريق هلاك نام زانرها
مدينة الليل والأبواب مقفلة
مدينة كل من فيها يحاصرها
أناسها عثرات في شوارعها
من الظلام ولا شمس تناصرها
والليل يصرخ والأسحار خائفة
والآن تبيض في شعري خسائرنا
مدينة هزمتها نفسها قلقا

زوابع

شعر: أميرة الرويقي

زوابع الصمت

ناسفة

لالغة

لا رسائل عشق

لا شرايين

تمتد ..

من وريد القلب

إلى وريد الأذن

لا مواعيد

تحت سقوف المطر

لا رؤى

في هشيم القلق

تستعر .

فقط زوابع

محت ،

تضاريس الكلام .

18 جانفي 1996

وفي البدء.. كانت الكلمة

شعر : مفيدة البرغوثي

وفي البدء ، كانت الكلمة

وأكبر منّي كنت

ولا أزال

وكانت الورقة كيد موسى

حتّى ، إذا أخرجتها من دمي

بدمها مضرّجة

شُيِّعت إى مثواي

الأخير

حتّى ... أعود إلى سيرتي

الأولى

تونس 1998

نشاز...

أقصوبة :

بقلم : آمنة الوسلاتي

سوّت المخذكين وجذبت طرف اللّذائف إلى أسفل حتّى تسهّل حركة الانزلاق تحته لمن يريد النّوم . كان شيء ما يقبض على حلقتها ويدفع بالدموع إلى عينيها . وكانت تأخذ أنفاسها بصعوبة حتّى تقضي على ما يخنقها في غلظة . " اللّيلة تتكشف الأسرار وتفتح مغاليق النّفس أبوابها .. لا يحتاج الأمر _ في الحقيقة _ إلى كلّ هذا العنت فهو واضح ومكشوف وما عليّ إلّا أن أقف أمامه " .

وصلتها حركته غاديا رائحا بين غرفة المكتب والمطبخ ودورة المياه .. ها هو يستعدّ لسهره الذي يرفض أن تشاركه فيه .. سهر يقضيه بين التّنهّد وانغام سحرتهما معا وحل وترحال بين هذا المكان وذاك في البيت .

متى بدأ يحصل هذا ؟ لا تعرف بالتّحديد ولكنه بدأ يحصل منذ مدّة تبدو لا نهاية لها .. فجأة أخذ يسهر في غرفة مكتبه وحده .. مع الأوراق والسّجائر وأكواب القهوة . وفجأة شمله تهيّام لا يصحو منه واعتراه ذبول وكرب عظيم . وفجأة هجره النّوم .. يدّعيه في بداية اللّيل ثم يتركها وينسلّ من فراشه بجانبها ويعتزل بغرفة المكتب أو يروح ويغدو بين الغرف الأخرى لا يستقرّ به مكان . وهي تفتّنت إلى ذلك من أوّل ليلة وتبعته إلى مكتبه فأغلق _ منزعا _ كرّاسا صغيرا كان يكتب فيه وسألها مقطّبا :

_ لماذا لا تنامين ؟

فسألته بدورها :

_ لماذا لا تنام أنت ؟

فردّ مقطّبا :

_ لا أريد .

فقالَتْ :

_ ينبغي أن ترتاح .

فردّ مقطّبا :

_ أنا مرتّاح بهذا الشّكل .

واستغربت نبرة التّبرّم في صوته فرجعت إلى الفراش محزونة تكاد تبكي

رفعت طرف الغطاء وانزلت تحتّه وتحفّز كلّ ما فيها وهي تراجع ما ستقوله حين يتمدّد بجانبها . لقد قرّرت أن تقول له ما ستقول منذ أيّام . ولكنّها ما إن ترى حزنه وتلمس تبرّمه وتقرأ في عينيه _ وهو يرفعهما عليها عندما يأكلان أو يتحدّثان _ ألوانا من العذاب شتّى حتّى يسترخي حماسها وتتركها لهفتها لمواجهة الأمر وتقرّ منها كلّ الجمل التي أعدتها فتمنّي النفس بفرصة أخرى .. لكنني اللّيلة سأقول .. ولتأخذ الأشياء الشّكل الذي تريد فهل سنصل إلى أسوأ مما نحن فيه ؟ " .

نظرت في اتجاه الباب فشددتها لوحة صارخة بالألوان والورود والجمال . صورتها يوم الزفاف! . هل يمكن أن نفقد السعادة بمثل

هذه السهولة ؟ ولماذا تعكر كل شيء فجأة ؟ أما كان يمكن أن تحصل
مقدمات فنستعد ؟ .. كانا يتناظران في الصورة بلهفة وشت بها
أصابعهما المتشابكة وشفاهما المتقابلة . " سأقول إنني أعرف وأدرك .
وإنني فهمت ما وقعت فيه منذ البداية . وإن ما يؤلمني ليس ما حصل
لك وإنما ما حصل لي " .

سمعته وهو يدخل غرفة غسان ابنهما وتصورته يسوي فوقه الغطاء
ويقبله على وجنته أو فوق يده . واعتصرها حزن لا عهد لها به
وتسألت : " فلماذا تبتعد عنا بهذه السرعة ؟ ولماذا تقع فيما
وقعت فيه ؟ " .

وارتفع وجيب قلبها وهي تراه يذلف إلى غرفتها . وعاد ذلك
الشيء الغليظ يقبض على حلقها . وأدركت أنها ستعجز عن أن تقول
له شيئا مثلما كان يحصل سابقا .

لم تتعود على مثل هذه المواقف معه . وإنما كانت حياتهما بسيطة
لذيذة فيها إقبال كثير وانسراح وضحك ومصافاة . لقد عاشت معه
سنتين على وقع أنها أفضل امرأة لديه ، وأنها الحقيقة الوحيدة في
حياته ، كما كان دوما أفضل حقيقة في حياتها . " فمن يعينني على
مواجهته ؟ على منعه من أن يتصور أنني لا أفهم ، ولا أدرك . بل
أفهم وأدرك .. وأنا أستعد الليلة لأفتح مغاليق نفسه ، لأقول له إنني
أعرف وليكن الجحيم بعد ذلك .. "

تمدد إلى جانبها ، فغطت وجهها بذراعها ، وقام الفراغ بينهما ،
ترحزح قليلا حتى التصق بها ، وقال :
_ ألا تريدان أن ترينني ؟

فسكنت نفسها قليلا، وخلصتها تنهيدة قوية من كثير مما كان يضغط على صدرها، وقالت :

_ أريد أن أقول لك شيئا ..

أنزل ذراعها من على وجهها، ووضع رأسه في حضنها _ تماما كما يفعل غسان _ ، وقال :

_ وأنا أيضا..

وبكت أعماقها. "هل يجد في نفسه الشجاعة على مصارحتي بما يمرّ

به؟" _ ثم سكنا . وسمعت نفسها تقول بهدوء :

_ من هي ؟..

أدخل ذراعه تحت رأسها وكتفها ، وأخذها إليه ، " ها هو يكفر عن ذنبه ويتودّد قبل أن يفرقنا الصوفان " .. ثم اتكأ على مرفقه ، وجعل وجهه يعلو وجهها ، وسأل

_ من ؟.

أبعدت وجهها بحق واضح، وضغطت على مواقع الحروف:

_ من تأرق من أجلها ، وتكتب ، وتسهر على أنغام كنا أحببناها معا.

امتألت عيناه بالدموع ، وأخذ يدها ووضعها على شفتيه دون أن يتكلّم، وتأوّهت "لماذا أفهمه بكلّ هذا الوضوح ؟". واستوت عندها الأمور. إنه يعترف بدموعه وملامحه وحزنه الفائنض . فآية معجزة أنتظر؟ إن هي إلا لحظات وينتهي كلّ ذلك العنف الذي شدنا إلى بعضنا بعضا. واستغربت أنها لا تحزن إلّا من أجل نفسها . وبدا ابنها خارج دائرة خسارتها تماما ، وتمتمت: " ألا إني أحبك " .. وغمرها

امتحان عارم وهي تتبين أن الصوت لم يغادر حلقها ، وأنه وهو يلصق
باطن يدها بشفتيه، لم يبلغه ما كانت تتمم به .

وقال فجأة :

_ لقد زرت الطبيب.

واجتهدت حتى تهضم النشاز الذي قذفها فيه، واستدارت إليه مقببة
في دهشة، فرمى بنقله على المخدة، وقال في اقتضاب :

_ دمائي ملوثة.

التهب داخلها ، فاستوت جالسة ، وصاحت:

_ إنني لا أفهم..

فردّ وهو يتهدّد :

_ لو كنت مؤمنا لانتظرت معجزة من السماء ، ولكن العلم كان حسمه

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

واضحاً...

تخبّطت في شرك غير مرئي ، وضربت الهواء بيديها ورأسها

بينما كان يقول :

_ هناك أمل في تأجيل البلاء، فنحمد السماء على أي حال.

وارتفعت صرختها في سكون الليل :

_ لا !!! ! " .

بقعة زيت

بقلم : د . سليمان الشطي
(الكويت)

بعد صلاة العصر .

أسند الشيخ ظهره على العمود الأسطواني الكبير ، أدار عينيه في الجموع التي تحلقت حوله . مدّ رجله ، كشف ساقه وتحسّسها ، وعلى غير العادة لم ير الحاضرون قطعة القماش الخضراء التي كانت تغطي هذا الجزء من الساق ، وانكشفت بقعة سوداء قائمة ، عليها بقايا غبرة في أطرافها ..

أشار إلى ساقه ، وتحسّس البقعة ، ثم قال : <http://Archive.org/details/Al-Biqqa>

هذه ذكرى باقية من الحكاية التي سأرويها لكم اليوم . لم ينتظر ليستمع الى الاستفسارات المعهودة . كانت الحكاية تملؤه مندفة إلى الشفتين :

أوائل صفر من عام اثنين وأربعمائة للهجرة ، كنا على مشارف مدينة (....) ، وقد عانينا أياما عاصفة مغبرة تلاها جراد أكل الحياة . لاقتنا أرضها ، سبخة ، يعلوها نشع أسود ، ولكننا مع هذا أحسّسنا بأنها بلدة آمنة . انخنا مطايانا تحت السور .

سور طين ممتد ، بوابة كبيرة مرتفعة يمتد فوقها برجان صغيران ، قضينا ليلتنا متكئين على متاعنا الليل كله . ومع الفجر فتح الباب الكبير ، دبت حركة الحياة فينا ، واندفعنا لنجتاز البوابة ، وفي وسط الهياج والحلبة صاح صائح :

أيها القوم ، لا يتحرك أحد منكم ! رسول الوالي يحدثكم . وتقدم الرسول ، توسط بحصانه جموعنا ، قلب نظره فينا ، وصاح :

ـ أيتها القوم هل بينكم طبيب أو عراف أو حكيم ؟

وسكت برهة ثم واصل :

ـ ان كان بينكم واحد فليجب الوالي .

جلبة وهممة أعقبها صمت حذر ، بعض الأنظار اتجهت اليّ وصاحبي ، أحسست بأنهم يأمّلون منا شيئا ، كانوا تجارا مشفقين على قافلتهم ، ولعلهم يكسبون خيرا من تقرب الحاكم لنا . أصبح الصمت مقلقا ، أمسكت بيد صاحبي وهمست له :
توكلنا على الله ، وصحت :

ـ سأذهب معكم

وانفجر صوت الفرح بين أفراد القافلة

تغلّبت على حرج الموقف وقلت مبادرا :

ـ يا مولانا . لسنا من الحكماء أو الأطباء أو العرافين ، ولكننا نجوب الديار فنأخذ من حكمة الشعوب ونحفظها لنستفيد منها عند الحاجة ، فهي ليست حكمتنا ولا طينا ، ولكنها التجربة التي نخزنها ونضعها في مكانها بتوفيق الله . وها نحن بين يديك ونضع أنفسنا في خدمتك إن وجدت لدينا أي نفع .
ورفعت عيني باستحياء ناظرا اليه ، فأحسست بأنه ليس معي ، مطرقا مفكرا ،
وحول أصبعه باتجاه الوزير فتكلم هذا :

ـ لعلّ قد وصلتكم أخبار الرياح العاتية التي هبت علينا منذ أيام .

قلت :

ـ بل لاقينا منها غشا ، ونحن في طريقنا إليكم ، لو لا عناية الله لتفرقتنا شذر مذر .

وواصل حديثه كان ملاحظتي لم تمس أذنه :

حاقّت بنا منها مصيبة عظيمة ، كما ترون ، نحن نعيش على هذا الساحل ، حياتنا معلقة في البحر ، نحن نعرف حقيقته ولكن لا بد مما لا بد منه ، وعندما هبت العاصفة كانت سفننا كلها في البحر ، لقد كلأت العناية الالهية العاملين في الصيد والتجارة وأنقذتهم جميعا ولكن ..
ـ الحمد لله .. الحمد لله .

- ولكن المصيبة الكبرى !

وأزور بنظره نحو الوالي الذي انتفضت أطرافه :

- ابن مولانا مع اثنين من مرافقيه ، كانوا في رحلة صيد بحرية وقد هبت العاصفة عليهم وهم هناك ، وقد بحثنا بعد أن قذف البحر بمن فيه إلا ابن مولانا ومن معه ، يتسنا ، وكلت العيون ولم تطرف بأي أمل ، لم يسبق أثر أو وهم أشر إلا وقد تابعتاه .

وأمس فقط ، بعد أن انقشع الجراد ، قذفت الأمواج بأحد مرافقي ابن مولانا ، وهو بين الحياة والموت ، لا يعي شيئا ، وقد طلى جسمه بقار أسود ، غطاه كله ولم يبق من بياضه إلا بقعة صغيرة من بياض العين ، قار رهيب بذلنا كل جهدنا كي نزيله فلم ننجح إلا قليلا .

صمت برهة . أزاح طرف كفه فبان ساعده

- أنظر . هكذا !

كان القار الأسود يغطي الساعد بكثافة واضحة .

ARCHIVE

- حاولنا . أحضرنا كل ما لدينا لإزالة هذا السواد ففشلنا ، كنا نحاول معه ، في الوقت نفسه ، لمعرفة أي شيء . يهدينا إلى مكان ابن مولانا . أسجيناه وبذلنا معه ما استطعنا ، أمس مساء تحركت شفتاه ، نشط نشاطا غريبا حاولنا أن نسمع منه ، ولكنه كان يتحدث كلاما غير مترابط أو غير واضح ، حار حكماؤنا وسقط في أيديهم وأعلنوا عجزهم . فأرسل سيدي رسائل كثيرة يستنجد بها ويستدعي أشهر الحكماء ، ولكننا نخشى فوات الأوان . لذلك نحن نبحث عن أية معونة . لعل عجزنا يزول بكم . نريد أن نفهم لنصنع شيئا .

اتحنى رجل دخل لتوه ، للوزير وهمس له بشيء . وهو يهز رأسه ، ثم قال :

- إن هذا الرجل يخبرني بأن كلمات الغريق بدأت واضحة ، ولكن المعاني قد غمت عليهم .

التفت الى الوالي :

- هل يسمح مولاي باصطحابهم إليه ؟

وأوماً بالموافقة !

قال الشيخ :

. لم يكن لدي أكثر مما أعطيته ، بقية من أعشاب تثير النشاط في الإنسان ، وهيني أياها تاجر يماني ، راغني نشاطه وخفة حركته ، سألته . فأعطاني حزمة منها ، فاحتفظت بها .

كنت أنتظر استجابته بعد أن تجرع السائل الذي أعددت ، خامرني احساس بالنجاح حينما بدأت بشائر البقطة تغزوه ، بريق الحيوية لا تخطئه نظرة من تابع هذا الجسد المسجي الأسود بما عليه من قار راكن . أردنا أن نحد من قمتاته غير المركزة بالسؤال ، أمسكت بيده اللزجة ، بلغت ريقى :

هيا أخبرني . ماذا جرى لكم ، أين ابن مولانا ؟ تحدث . هل تذكر شيئاً ؟
برقت عيناه ، تهللت أساريره كأنه رأى شيئاً أو تذكر رؤيا جميلة في أول الصباح ، كان بريق عينه وسط سوء الكيف يكشف أنه أصبح بعيداً عنا ، كان هناك من حيث أتى ، ما في صدره من قول يرتفع ليطغى ويستحوذ ، تقاربت بعد ذلك خطوط جبهته ، وبدأ يروي ، أحسنا بالفهم ، الهمهمات والكلمات الحاطفة بدأت تستقر وتترابط .
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وبدا يحكي :

... كنا بين أمرين : هذه الجزيرة الجرداء التي تحمل توقع الموت فقط ، وهذا البحر الذي قذفنا أمامها ، لا نعرف ما وراءه . لقد حكمنا خوف مرعب بعد مواجهتنا للعاصفة ، لقد كشفنا فأصبحنا عراة أمامها . خائفين . وجلين مسلوبي الإرادة . لم تعد سواعدنا تقوى على شيء ، ننتظر ونستسلم للقدر بفعل بنا إرادته . ما زالت ذكرى اللحظات التي عشناها في البحر مستسلمين للجنون الغاضب الذي أحاط بنا ، لم نجرؤ وقتها حتى على مد أيدينا إلى بعض أو نحتضن بعضنا خوفاً أو بحثاً عن أمن . أعيننا الزائغة تهرب من حولنا ، كأن قاربنا خلا من نفس بشري ، كنا الاستسلام مجسداً حتى انتفضنا معا على ضربة قوية في قاع القارب .

الأرض مرة أخرى ، قفزنا بلا شعور ، وألقينا ، وسط العتمة بأنفسنا في الماء .
جرينا نشق الماء بصوت واضح . وعندما وصلنا واستلقينا مدة تذكرنا القارب ،
عدت وزميلي إليه ، بينما استلقى ابن مولانا على الرمل ..

من هدوء ما حولنا أدركنا حصارنا الذي نحن فيه ، ومع أن احساسنا بالعجز
باق ، فإنه ما دامت لنا قدمان فلتتحرك ، أصبح الاستطلاع ضرورة ملحة ،
تسويقنا العقلي لا مبرر له ، أدركنا أننا وسط رمل أجرد تمتد وسط ماء بحر ،
محاولتنا في البحث محكوم عليها بالفشل . بدأت أرجلنا تحس مرة أخرى برودة
الماء الذي سنعود إليه حتما ، لذلك كانت أعيننا تمتد إليه ، ولكننا مكسر الطرف
بحدة لنعود مرة أخرى الى الاحساس بذرات الرمل التي تباعدت وتجمعت لتشكّل
عالمنا متصلا ومنفصلا .

باطن أصابعنا تغوص لتنتفض بحركة عصبية فالرمل متحجر ، وهم الخوف بهز
داخلنا بقوة ، هل نحكم على أنفسنا بالعودة مرة أخرى ، نظرت الى ابن مولانا
المطروح أرضا ، كنا نريد قرارا ، عينا الجسد المسجي تقول إنه لا يقوى على التفوه
بحرف ، ليته يأمر ، أننا الآن فقط سنقبل بوضوح أي أمر يصدره ، ولكن كل
استطاعته توارت خلف جفاف العينين ، لا قرار ، لا نطق ، صدى صوت لقلبنا دون
مناقشة . ها نحن وسط كون خال تلفه أوليات العتمة ، كل واحد عاجز عن التفكير
المنفرد ، وغير قادرين على أن نجتمع . ورأيناه !

خطف أبصارنا المشتتة فتركزت فيه ، قوة جذبه كانت طاغية بشكل واضح ، وقد
لاقي المجدّب عجزنا فاستلبنا .

لمع مرة أخرى ، ثم ثالثة ، وأضحى ينعكس بقوة مع الشمس الغاربة ، لم يقل
أحد منا : انظروا ! . ولكن أعيننا شدت الى زاوية واحدة ، نقطة للمعان ، شيء
جديد يحيط بنا .. انتفخت صدورنا بهواء كثير ، لقد جاء المنقذ ، وأحسننا لأول
مرة ، بأن أقدامنا العارية لم تعد تقوى على احتمال ذرات الرمل الصلبة التي تندس
بين شقوق أكعبنا ، فاشتاقت الى انسياب الماء من جديد . حالة جذب بثت في
خلائفنا نحو هذا اللامع ، رأيناه وسط محتتنا طوق نجاة حبيب ، وجهها مألوف
ينبعث بين موجة وأخرى ، يتكاثر ، يملأ أعيننا فلا نرى إلا إياه .

نظرنا الى بعضنا ، كأن الحاطر قد نزل علينا بصيغة واحدة ، أو سمعناه من فم واحد ، يحكمنا قرار واحد واضح ، ومع ذلك تناقشنا وقتها لنؤكد هذا القرار ، وكانت مرة يتيمة :

ـ أنبقى في هذه الجزيرة الجرداء أم نعود إلى البحر مرة ثانية ؟
قلت لهما :

ـ ولكن ! هل نعود الى قلب العاصفة ؟

قال زميلي :

ـ البحر هلاك ، الأرض أكثر صلابة وأمنا

ـ ولكن البحر أوسع أملا

ـ هل نبيع صلابة الأرض بأمل سائل

ـ خير من حكم العدم

ـ قد ننجو

ـ قد نهلك

غريب هذا الأمر نتناقش دون أن ينظر أحدنا إلى الآخر ، تحدث أعيننا الى ذلك الشق اللامع ، نتحدث بعد أيام من جفاف الخلق ، هل لقد اندت نكتة من صاحبي كعادته ، وبدلا من أن أستحضر القصائد القديمة ، كما كنت أفعل ، أحسست بأنني أمتلئ بقصيدة جديدة ، سرحت معها ، ننجو ؟

لحظتئذ تكسرت ذرات الخوف ، وهيمن الأمل والفرحة والممكن والمحتمل ، كل هذه دخلت في حيز الحقائق ، رأيته أنشد قصيدتي على مرأى من أناس جدد ، ملابسهم مطرزة ، عيونهم مفتوحة بنشاط بعد نوم طويل .
قررنا ! وشق قاربنا طريقه بصدرة نحو اللمعان الذي بدأ يتلاشى قليلا بتناسب واضح مع ميلان الشمس نحو المغيب .

وساد الظلام !

تلاشت تدريجيا أصوات حبيبات الماء التي كانت تضرب جوانب القارب ، أحسنا بلزوجة تدريجية . واصلنا التجديف ورددنا ثقل المجاديف الى التعب الذي ران علينا . لم نعد نتحدث أو نتشاور ، كل واحد يفعل ما يشاء ، ابن مولانا ينام

ويستبقي ، صديقي يتذكر نكتة ، يرويها ، ثم يصمت ، يجدف ، يلقي المجداف .
أصبح التجديف متعذراً ، لقد تمكن التعب منا . فمننا ..
أحسست بالنهار على جلدي ، لهيب يشققه ، ولم اقو على الحركة . لكنني
أحدهما :

ـ أنظر !

اعتدلت ، مددت يدي الى جانب القارب لأزيل بقايا نوم تعب ، لزوجتي ، نظرت
، كانت يدي تحمل طبقة كثيفة من زيت أسود كالقار .
ـ أترى ما أرى ؟

مهما امتد البصر لا يقع الا على هذه الطبقة السوداء . وعلى الأطراف البعيدة
تتكسر أشعة الشمس لتعكس أضواء متفاوتة الألوان . قلت :
ـ أرى ؟

سؤال صاحبي وردني يحمل هلعاً واضحاً ، قال :
ـ هل هذا الأسود هو النور الذي رأيته أمس ، أم ذلك شيء آخر ، ترى أضلنا
طريقنا في الليل ؟

قال ابن مولانا وهو يشخص بعينيه :
ـ ليس هناك من شيء إلا هذا .
ـ لعل هذا هو بحر الظلمات يزحف علينا .
ماذا نعمل ؟ ـ سؤال يطل ولم نصرح به ، لا فائدة من الحديث ، ولكن :
ـ نعود ؟

ـ الى أين ؟

الى الجزيرة مرة أخرى !

ـ نسيتمنا أننا كنا سنموت فيها حتماً

ـ المشكلة كيف نعود اليها مرة أخرى ؟

الشمس تلهبنا ، الأطراف التي طالها الزيت يشتد أوارها ، لا بد من الحركة
فالسكون موت محقق ، وجدفنا لعلنا نجتاز هذه البقعة .
قلت :

التي تجعلنا نرى عكس الجزيرة ، يعني نحو بلادنا ، لعلنا نتجاوز هذا ونصل .

قال ابن مولانا :

ونتأمل ، حتما أقام والدي الدنيا وأقعدنا .

أه ، نسينا يا مولاي أن معنا ابن الوالي !

لم نعد نملك استطاعة نسيان هذا اللاهب الذي يفجر فينا الحمم من كل جانب ، جلودنا تكاد تشتعل مع حرارة الشمس ، قوانا خائرة وجفون عيوننا مشقة ، كأن حبالا تشدها الى بعضها كي تنطبق ، لم نعد نرى إلا خطا تختلط فيه الرؤى . نسمة عابرة تأتيننا مع العصر ، كررنا محاولة النظر ، واستطاعت أعيننا أن تتحرك لتشمل البقعة دائريا لتحتوي أقطارها الأربعة .

سكون مريب وسط مقدمات العتمة ، كأننا قد بدأنا نألف اللون الأسود ، أعيننا تدور ، ففقدان الأمل لا يلغي الدوران .

وفي وقت واحد توقفت عند الشمال !

ست عيون تتوقف عند ملتقى واحد ، نقطة تشابك حولها النظر ، ساحة خلاية ، وفي خطفة سماوية انسل التعب ، وكأن خراجا يشقنا قذف ما فيه ! استرخى كل واحد منا في بقمته ، وانظارنا متخشبنة تتأمل وتشيع في هذا العالم الجديد الذي انفتح أمامنا .

لا أدري بعد كم من الزمن قلت :

أترون ما أرى ؟

لم أسمع شيئا ، كانا في عالمهما لا يستجيبان لأية حركة خارجية .

أمر عجيب ! . هل ترون ما أرى ، أم أنا وحدي في حلمي ؟

وضعت يدي على جبهتي دلكت عيني ، مددت يدي الى الماء الزيتي ونضحت على وجهي لأؤكد ، فزادت الرؤية وضوحا ، ما أراه صحيح ساطع ، نظرت الى راحة يدي ، سوداء ، لا شك فيها ، أما الأفق فهو باق واضح لا مجال للشك :

>> في اللجة ، وسطها تماما تتدرج بقعة الزيت صعودا ، ترتفع مع سير النظر ، مثل تل بارز في صحراء مستوية ، والألوان تتدرج فيها من السواد القاتم فالأقل سوادا فالأخضر القاتم ، وتمر عليك الألوان زاهية حتى تصل الى الشفافية المنيرة ،

والأشكال تتمايز مع كل مرحلة لونية ، تقدم عالما خاصا ، هذا الأفق أرض ريت
فنز ماؤها فانبعثت ألوان النبات ندبة تحس طراوتها وليوتها بين أصابعك . »

استولى هذا التل على بؤرة التركيز ، خالطني خاطر : هل هذا ممكن ؟ >> القبر
روض من رياض الجنة >> ، فهل أنا هناك حقا ؟ . ولكني أعرف نفسي جيدا ،
ولو دخلت الجنة فلن يكون هذا مبكرا ، لعلمي صنعت خيرا في دنياي ، ولكن :
متى وأين ؟ وتذكرتها .. صحيح كنت أرعى أولادها ، وقد احتضنتني هي
وأعادت ثقتي بعد بأس ، ولكن أين ذهبت شهوتي التي لم أستطع أن أدفعها
كلما جلست معها ، كانت تقطر بحدة ، هل تفضل الأعمال عن النيات !

ولكن هذا عالم حقيقي . إنني أكاد ألمسه لمسا ، لقد أعادتني قمة التل إليها
مرة أخرى ، ألغت ما حولها . فكلما ارتفع النظر إلى أعلى سابقه حتى توقفت
عند القمة مشدودا إلى الكاشفة لكل ما وراءها :

طوابق من غرف زجاجية واسعة ، بعضها يفضي إلى آخر ، يملكك شعور
باتساعها الذي لا يحيد مع هذا الاتساع ، قد خلت من أي شيء ، ولكنها ، مع
ذلك ، مملوءة بأشياء لا تحصر عدا ولا تحدها أو تعرفها الأسماء ، جديدة ، خارقة
الجمال في ألوانها وأشكالها ، وزخارفها التي لم تر مثلها . كل ما فيها يتحرك
بذاته ولكنها تنطق بمصادرها البعيدة : الهند ، والسند والصين وبلاد الافرنج
والغال . من عالم بعيد غريب وضع فيها كل فنه ، تحيط بهذه عيون جارية ،
تسمع تناغم الماء والحصى ، وفي الداخل ترى الأرائك المرتفعة ، والزرايب المشوثة ،
والنمارق المصفوفة .

وازدردت ريتي المتخشب حين رأيت زجاجات تشف عما فيها ، ليس بين أية
واحدة وأخرى شبه في الشكل أو الحجم أو اللون ، شعرت بلذعاتها في لساني
فترطب فمي ، ومع ذلك فإن ما فيها محفوظ لا يغيرها ، ولكنه في الوقت نفسه
يسيل منحدرًا إلى أعماقك .

وفي وسط هذه الغرف الفسيحة ، تبرز بوضوح قاعة رئيسية هي القلادة
المتوسطة وقد اصطف على جانبيها رجال متكئون على النمارق ، لمي بيضاء
صافية كرمل صحراوي ، ملابسهم خالية من أية زركشة ، ولكن انسيابها يدل

على غلاتها ، من بين الأصابع تنحدر مسابيح صندلية تفوح منها رائحة يكاد يخنقك عطرها . خواتم زرقاء وبيضاء لا تستطيع النظر إليها ، تخطفك لألونها عالم آخر جديد لم آلفه ، ولكن الوجوه أعرفها جيدا .

جلسة دائرية يسودها وقار ، قرآن يتلى ، لم أر قارنا ولا مصحفا ولكن الصوت السماوي يضرب في أنحاء القاعة الضخمة فتزداد شفافيته ، فتكاد تطير بنا وبهم .

قلت في نفسي :

- هذا عالم روحي ، لا شك في هذا .

وانتابتني نشوة أنستني كل شيء كنت مشدودا للعالم الذي أمامي :

.. تحرك أحد الجالسين ، جذب نظري معه ، وبدأ الصوت القرآني يتلاشى ، توسط القاعة ثم أخذ ينزل من سلم وعيني معه . غاب جزؤه الأسفل ليظهر في الغرفة السفلى .

آه ... ما هذا ؟

كلما نزل بان جسده ، بدأت أرى عريه ، ثيابه كما هي باقية ولكنها تشف كزجاجة بيضاء ، فلا حاجب يحجب . الساق : الخوض : العورة ، والوجه اكتسى بلون زيتي لامع . الساقان تحملانه ولكنهما يتحركان بارتعاش منتش .

القاعة السفلية تداخلت أشياءها ، عالم مختلط ، الزجاجات تقذف ما فيها ، وظهرت جموع من نساء ، كل ما عليهن يلمع ، يجعلك مدهوشا ذاهلا ، مستلقيات بأوضاع لا حصر لها ، لماذا قفز ذهني إلى الرقم خمس وخمسين وثلاثمائة سنة ، مختصرة في أوضاع جنسية . نعم ، لقد أصبحت رائحة النشوة الجنسية تعلو على أي إحساس آخر . النساء لايسات ، ولكن لا شيء مغطى ، واضحة كل المعالم ، رغم الملابس الفخمة المناسبة للامعة ، وضوح تحت الشمس ، لمعان يعري الزوايا القاتمة فتشع لامعة لكل ناظر .

شكل خارجي محتشم مستور ، ولكن به داخل واضح مبتذل .

واختلطت الغرفتان : العلوية والسفلية ، رأيت الرجال المحتشمين في الغرفة العلوية ينحدرون واحد تلو الآخر ، وعندما يتجاوزون البرزخ الفاصل بين الغرفتين تبدأ

الملابس تشف عما تحتها ، بدأ الصوت القرآني يخفت ثم اختلط بغناء جيّد ، أحفظه لظالما سمعته عندما كان الليل والخمر قد أخذاهما مني كاملا . ولكن ها هو الآن الصوت يصرخ به جهازا .. لو لا خيرة سابقة لما استطعت أن أميز شيئا بعد أن اختلطت وتداخلت وانطرحت الأجساد كأغنام مسلوخة ، واحتوتهم لحظات التمرغ فوق السجادة الخضراء وتشبع الجو باللذة ، عالم يغريك مرة بالتفرج عليه ، ويدفعك دافع قوي لأن تدخل فيه . ولا تدري أيهما تختار ؟!

لم أعد أميز فقد تلاشت الفروق بين الغرفتين ، وتحطم البرزخ الفاصل ، من فوق كمن هو تحت ، الكل عار كأس ، رأيت اجتماعا يعقد ، وأوراقا ميسوطة وفجأة تتغطى بجسد امرأة .

وانتزعتني صوتا صاحبي ، فقد نطقا معا :

قال ابن مولانا :

- هذا ما أريده بالضبط . هذا عالمي . أعرفه جيدا !

وألقى بنفسه في الماء الزيتي ، بينما كان صاحبي يقول :

- هذا العالم أحبه ، هناك بغيتي ...

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وتبعه ..

لحظات خاطفة وإذا هما هناك ، صعدا التل ، تدرجا في الصعود بينما كان السواد يطلخ ثيابها المبلولة ، مدا أيديهما فاذا هما وسط الغرفة ، قد كشف جسدهما من وراء الثياب ، عاريان تماما ، سوادهما الزيتي باق ، واختلطا بذلك العالم .

تملكني خوف رهيب ، أردت أن أستيقظ ، لولا أن شدتني حركة في غرفة علوية ، تخللت الحياشيم من عطر يتقدم فيملاً الغرفة ... هبط قلبي برفق كأنه كان يتوقع ما يرى ، رأيتهما : همست كأنني أحدث أحدا حولي :

- هي لا غيرها ... ميمونة ، وجدتها أخيرا ، هل يمكن أن يستيقظ الماضي ، هل يعود بعيدا عن لحظات الحزن التي أسلمتني للضياع . لا يمكن أن يكون هذا خيالا ، وجهها القمري خلا من أي عيب ، لن نستطيع أن نعلق على حالة السحر ، أو نسجل حالة الجذب الكامن هناك ، لن أنساها أبدا ، أطياف ذلك الوجه حينما

يعلوني الوهن في أيام الحيال الأولى ، عندما كانت شفتاها وبريق عينيها عالمي الذي أهيم فيه ، لحظات السكون القديمة التي كنت أتأملها ..

ها هي أمامي ، بعد زمن طويل فصل بيننا منذ أن حملها زوجها معه بعيدا ، ثم جاءت أخبار جسدها الذي توارى وغطاه تراب قاس . لقد غضت بعدها في وحل الحياة الذي اكتشفته ومعها العالم الآخر الذي همت فيه ولكن هاهي !..
عندما تملكني ارتعاش ، جسدي الخامل يرتعش بقوة ، تصبب عرقا كثيفا ، رأيتها بوضوح ، أحسب لمسها ، مادي بارز ، أمد رأسي أمامي ، أراها تشف أمامي إن عصر هذا الجسد وحده يمثل امتلاكا لروح تذوب مكوناتها في الشرايين .

أمدّ رقبتني فيزداد الانكشاف فالالتصاق ، فالتدّاخل ، كلّ يندفع ، خفة وارتفاع إلى الأعلى ، اختفى كلّ ما كان أمام العين ، لا مناظر ، لا تدرج ، لا شيء ، فقط تلك البقعة الزجاجية .

ها هو حرمان دهور يتلاشى بعيدا ، أملك الآن شيئا كثيرا ، عندما استولي عليها أكون قد ملكت ما أريد من الدنيا ، ها أنذا .
وقدفت بنفسي في بقعة الزيت ، فانزلقت به داخل بين الجفن والعين ، فانزلقت الدنيا من حولي ، وحجبت عتمة الزيت كل الرؤى .

قال الشيخ :

كان المسجي يلهث ، أعضاؤه تتحرك بقوة ، يدها تضغطان على جسده ، كأنه يريد أن يخرج ما بداخله سواد اليد بسواد الجسد ، ارتعش ثم سكن ، نفس ضعف يكشفه سواد يرتفع وينخفض مع الصدر . أردت أن أقول شيئا ، أي شيء ؟

- هل ذاك آخر عهدك بابن مولانا ؟

أراد أن يتغلب على ضعفه ، كأن حرارة الرؤية السابقة تلهبه ، رفع أصبعه محذرا :

- لا تبخسوا بقعة الزيت حقها .

- ماذا ستفعلون الآن ؟

كان هذا هو السؤال الذي قذفته في حلقة القوم التي اتسعت ، وكأن عدوى السؤال تملكتهم ، لم يعودوا ينظرون إلى الشاطئ الممتد الذي تقاذفت عليه قطع متضخمة من الزيت ، وكانت كعوب وسيقان بعضهم قد تلطخت به . يتطلعون إلى بعض ويهمهمون ، صاح صوت متحمس :

- لابد من انقاذ ابن مولانا .

وتحرك صوت هامس .

- نحاول أن نحمي شواطئنا :

- بل ننتظر نجدة طلبها الوالي ، اطمئنوا ولا تشغلوا بالكم ، ولا ترعبوا الناس ، فكل شيء على ما يرام ، فقط أقلقوا على ابن مولانا . هو وحده في خطر حقيقي لا وهمي .

أحدهم همس في أذني :

- هل يمكن أن تدبر رحلتي مع قافلتكم ؟

نظرت إليه ، ووعده أخيرا .



مع انبلاج الصباح ، كانت قافلتنا تتحرك طلائعها خارج المدينة ، بقايا سواد الليل لا يزال يلفها أوليات النور تكشف قطع القار الزاحف ... وفي خارجها ، أنخنا رواحنا ، كل فرد من القافلة أمسك بخرقه خشنة يزدلي ما علق به من زيت . نظرت من بعيد إلى الغمامة السوداء التي تحيط بها ، كعمامة مفصلة على الرأس .

تساءلت :

- ماذا سأجد لو عدت بعد عشرين عاما ؟

ولم أعد إليها ، ولكن ذكرها بقيت تمثلها هذه البقعة السوداء الباقية ، وأشار إلى ساقه ..

الحوم خارج الإتصال

بقلم : معين عبد القادر آل زكريا

تقطعت أنات سنين طوال عند مفاصل حبات عرق وحبات مسيحة .
يذكي تصيري فاصل تأس يزفر جرحه في هدهدة الرحيل صوب
الآتي . كلما أحتمي بهدو ، مظنون تحفل غياباتي في أخيلات طفولة
تصفر ريحها في وجه تقدد مثل رغيف شعير مرمي في شمس تسلق
ألسنة الكلاب .

في مسجد « شيخ كعوب » كانت أضوية النهارات تصب
أسلاكها اللماعة على الفناء الواسع ، نقضم رائحة الرطوبة مع
الجوع . فتنبأ ظل شباك سرداب مقرنص حديدته كشعاع تناثر أمام
أرجل صغيرات . رنت ضحكة مجلجلة من فم طفل يقعد جوارى ،
يضع في رأسه غطاء أبيض مقلما بالأصفر . إثره زفرة هواء فاسد
ناشت قولونه دون وعية ، لم تستطع إمساك أنفسنا انسحبنا خارج
المشهد بقهقهة انفضحت دون خط الأدب ، و العصا تقدح عيونها بين
يدي الملاء شزرا .

بالاندهاش عينه استبقنا صوت يلهج في الخارج .
أجرك عند الله كثير يا « سيد »
اقتحم الصوت مسطحات و جوهنا بفرع أكيد . استدار رأسه بزواية
حادّة ثم تحفّر باكتناه متوسّل .
لم أفعّل غير كفّ الصبية عن مطاردة « أخي » ، يركضون ورا «
ويزعقون مجنون مجنون ... !!
لعن الله كلّ من يذر بذرة غير صالحة ورمائها في الطريق .
سقط سؤال مباغت في حلقي كحبات زئبق مقطر .
أتراهم كامين ورا آبائهم يا « سيد » ؟! أجاب دون تردد :

.. نفتحم نفوسهم من حيث الأمر و لتأتي البداية ... ثم يضربهم على
أفئتهم ...

.. الكبار الذين يستحقون الضرب أم الصغار ؟! إني أرى الموجة تزحف
من أسفل إلى أعلى . جفل كمن لدغته أفعى . أخذت تجاوبف
مكورة حيزا مرسوما في صفحة وجهه .

.. لم يكن كالزيف و الأناية نديتان تحومان خارج الاتصال ... ! قوم
العود الطري .

انقطع عن الكلام بغتة . اتجه صوبا معاكسا مني ، ثم أشار بصوته
إلى ظل يجاور الحائط من ؟! « وجيه » ؟! ثم بدا وكأنه ركب وصاحبه
عربة واحدة . ارتطم الاسم المخدوش في رأسه وارتد باتجاه الجدار
المقابل . كان يتمايل على الذي يليه من كلا الجانبين تغيبه حركات
مبعثرة . مكثت طوال نهار أبلج ممددا أسفل الشمس في مواجهته .

حين أقف مستطيلا في الكلام ، احترق في مخاطبته عليّ على
أقدح زتاد رأسه الصلب . لكنه فضل أن يحدق في صورتني دون

جواب .. <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

كان "السيد ... " مسافرا صحبة " وجيه المجنون " في تلك
اللحظة . كادت تنهال على رأسه كل أخبار صفحات الكتب
والمخطوطات المستهلكة من سبع اتجاهات فتنهدم كواهله ثم يعاود
المسيرة مرآت ومرآت . تنافرت القراءات بدق لزوجة الكلمات .

كم وسعنا المشي سوية جنب الجدار المشاوي . كنا متنافرين حد
الإنحاق بين طيات ذكرياتنا . فجأة صرخ باستغاثة مرتعبة : حي ...
حي ... الله حي .

كان يستعير اللجاجة بشكلها اللاهندي . هي حكمة والده يراوح
في أمكنة ضيقة قريبا من بؤر التقاطع . يستمرئ يرم ترتيلة مفعمة
بالإنظار على بعد ياردات من قضيتي بينما تزداد المسافات هروبا
من خطواتنا غير المحسوبات . حينما ارتحل عن أعلى الجدار كان

يُمْتَهِنُ الغَيْبِيَّةَ . لم آخذ كلامه على محمل الجدّ . كنت في يفاعتي عارفا بأصوله . كانت هويّته تفضح حالته المسفوحة على جدول أيامه حتّى أمسى متشبّثا بالمساحة المقلوبة ...!

" وجهه المجنون " ... يصعد السلم ويهبطه صباحا ومساء . يرتقي كرسي المنارة ، يبسط يديه إلى أمام وإلى أعلى . تيبّست عيناه مثل بيضتين في مقلاة . ينظر في غيوم السّماء دون أن يجفل من لمعة رعد أو يحترق من ضربة شمس .

تقول والدتي إنّ رأسه لم يعد يحتمل ثقل كتبه فاختلّ عنده فاصل التوازن ، يومها انحدر إلى الزقاق . انقطع بعض عام عن حلقة الدرس ثمّ ظهر مسحوبا من وجهه . قام يضع السجّادة على رأسه في عزّ آب اللّهاب . كثيرا ما جرّب أن يستقي الماء من ربوة تطلّ على النهر قرب « قرة سراي » . لم يكن بين يديه دلو ولا حبل ولا ماء ...!

كانت هناك شبه فضائات واسعة وإيرانات موهومة دون اطارات أو زجاج يتجول بين جنباتها يدفع بالقاذورات إلى حاف الجدران . كان الأطفال يتقافزون منحوله مثل صغار الماعز ينظرون إليه بعيون مقعّرة مقرّصين في زاوية نشنة يتقوّن في أسمائهم .

كنت منذ الصباح أغتسل بظنوني وهي تزحف مثل دودة تكدّ لترمي الرّمال بعيدا عن لسان الشاطئ . لمحتي منتصبا إلى جانبه على حافة الإيوان المفتوح على السماء .

انفجرت بعض أساريه . أشار بيده أن أقترّب منه أكثر ففعلت . كأنّه يريد أن يقتنص مشهد طفولته في تفاصيل وجهي . نس بصوت خفيض كاد يتلاشى حال ارتطامه بهواء فضائنا : أمازلت تُبحر الرسائل داخل قنّانٍ مسدودةٍ يا ولد؟!!

أي نعم ... هي أصابعنا تضغط على الجوانب ، وسواعد تمتد باستطلاعات متحفّزة ، ترمي الحمولة كلّها ، ننتظر دقائق حتّى

تتموج رائحة مفعمة بضجيج التناسل ، يتهياً لي انها اجوبة بقبول
رسائلنا إلى ... « أليس !!! »....

صار يراقبني بشغف كل يوم و أنا أرمي بالقناني وأبعث بالرسائل .
فجأة لمحتته يتقدم مني باصرار . مدّ يده باتجاه يدي وأطبق عليها
بشدةٍ يمنعي من ارسال الرمية السابعة . إمتثلت لأوامره . بتوسّل
ساذج مثل طفل ملحاح رجاني أن أمنحه فرصة واحدة لا غير . عندما
قذف بما في يده تجاه النهر وارتطمت القنينة و الرسالة بسطح الماء ،
صفّق بيديه نشوانا وكأنه يخترق حاجز الصوت بطلعة شقت عباب
الفضاء . كاد من فرحه أن يغذف بجسمه في الاتجاه نفسه ، توقّف
بغثة كمن تلبّسه وضع مفاجئ صفن بوجه محتقن . رفع رأسه نحوي
وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة و يحرك يديه بحركات غير ذالّة .
فجأة استدار إلى الورا و غادر المكان . كان كأنه يؤدّ أن يقول في
المغادرة أنني « أنا » الذي لا أفهم ما هو عصباً عليه . قبلت فهمه
... ثم كان « السيد... » في انتظار خارج الأيوان . ارتصفا جنب
بعضهما و سارا دونما كلام حتى اختفيا . بقيت انظر في ظلّ « قرّة
سراي » المطبوع على صفحة النهر و أفكّر في لاشيء... !

لكن تلاصق زوجين متخاصمين من طيور السنونو انقضا فوق رأسي
فجأة افزعني وأعادني إلى النظر في الأفق المصلوب . نظرت آخر
فنيّة مرمية في الماء كانت تتماوج بقلق صارخ وتقاوم وحدها كأنها
تستنجد بالمصير...! تتوسّل أن تركد على اتجاه واحد ، لكنّها ظلّت
تتراقص محتضنة الرسالة خوفا من الليل .

حين يغفو الاسم والعنوان ورسم الطفولة بين أياد وادعة ، وينثال
النهر رقراقا دون الإلتفات صوب مساقط الزّمن ، يأسرني خيال مبهم
يذوب بين مسامات جلدي وحجارة "قرّة سراي" الغائبة في ستر
الظلمة ...

حينها تملكني الرغبة في الطيران خارج حدود الخوف... ويحصل
اللقاء .

لوحة

قصّة قصيرة :

بقلم : عبد الستار جبر الأسدي
العراق

لن يتوقّف المطر عن الهطول ، استحوذني هذا الهاجس الغزير ،
وأنا أتلقّى سيلاً من الزخات المتواصلة وهي تخترق السقف المتعدد
الفجوات لأغصان شجرة اليوكالبتوس التي آلت محاولتي الإختباء ،
بظّلها إلى شعور بالحبيبة وقد تحوّلَت إلى اسفنجة تقطرها ، ملئت به ،
وعلى طول الشّارع الذي غسلته الأمطار هرولت السيّارات بماسحاتها
المطر المتساقط عن نوافذها الأماميّة وترشه على الأرصفة بعيداً
بعجلاتها المسرعة ، وبمحاذاة الرصيف الذي أقف عليه اقتربت خطوات
تركض غير عابئة بحيات المطر التي غمرتها مثل رجل قادم من المستقبل
يتعرف على طبيعة الأرض لأول مرة ، كانت أقدامه المسرعة تسحق
نظراتي المشدودة إليه ، وحين تجاوزني لومضة خاطفة ترك صوته معي :

- هيا ، ستغرق إن بقيت في مكانك ؟

وكألة ضُغْطُ زُرّ تشغيلها اندفعت خلفه ونفسي تخمن أنّ السّماء
حقاً تسكب كلّ مطرها دفعة واحدة ومن المحتمل أنّنا سنغرق : النّاس
والسيّارات والبيوت وربّما الأرض كلّها ، لم أقترّب منه كثيراً وكان
المطر يلاحقنا باصرار ، ويركض مثلنا ، فوقنا ، استحثّني صوته للدافئ
من جديد : هيا ، فتوازت خطواتنا العجلى مثل كتلة من مغناطيس
جذبني إليها ، وكان المركز فيها الآن عيناه اللّتان بدتا كموقدي خشب
ملتهبان بأشعة شمس مشرقة تبدد هذا الجوّ الفائض بالغيوم :

- يبدو لي أنّني رأيتك من قبل ؟

- لا أعتقد ذلك .

هل درست في ثانوية الحرية ؟

لا .

أتسكن في الثورة ؟

لا أيضا .

وتحولت عيناه و شفتاه إلى يدين تقلبان أمامهما أوراقا كثيرة ، و قبل أن يستمر في التقلب استنشق هوا مبللا ثم عطس بصوته نحوي و نحن لم نتوقف عن الركض على الرصيف الذي ذوبته الأمطار :

هل سجت من قبل ؟

وكأنما ضربني بعضا على رأسي فتنبهت خشية أن أركض مع رجل يقرأ الطالع والأفكار و يعرف الماضي :

نعم ، ولكن لليلة واحدة فقط .

أين ؟

في مركز شرطة الوحدة .

و كنت تلبس دشداشة بيضا ، حبشها و تقعي أمام مكتب ضابط التحقيق أليس كذلك ؟ أردت التوقف عن الركض وأترك المطر يغسل دهشتي التي اطلعت على قسماتي .

و كانت روحك تلوب على عقب سجارة رغم جوعك الشديد !

بدأ الصمت يسيل على شفتي، بينما ابتسم لي وكأنه عود ثقاب في ظلمة حالكة :

كنت أنا من قدّم لك السجارة ، كنت أقف قريب مستندا بظهري إلى حائط دون أن تنتبه لي .

ولا جدي من الإنتباه إليه الآن ، فملاحمه كملامح المطر تماما تومض و تختفي فجأة ، مثل ذاكرتي كذلك تفقد ماضيها بسرعة ،بالإضافة إلى أنني حينها لم أبصر سوى السجارة وبده ، يده التي طرقت بابا حديديا قصيرا وقفنا أمامه دون أن ندري وكأنه محطة استراحة لخطواتنا التي التهمت أرصفة و محلات وبيوتا وأناسا عابرين ، أردت الإستئذان

للاتصراف كي أستقل طريقى لكن عينيه سحرتاني، سمرتاني في مكانى قربة مثل لوح من خشب .

- لا يمكن أن أستضيفك طالما وصلت إلى بيتي ، استكان شاي واحد فقط على الأقل مع علبة سجائر و ليست واحدة إذا أردت !

بشْ بود وقد غدا شعره المغسول مثل لوحة لأصباغ مائية تلخبطت ألوانها و ساحت على وجهه الأسمر الذي يشبه وجه امرأة أطلت مرتبكة من وراء الباب الذي فتحتة لنا ، ولا يشبه وجه امرأة أخرى أصغر منها فاحت منها رائحة الصابون الزكية وقد استقبلتنا بهدوء ، خلف الباب الثاني المؤدى إلى صالة البيت الصغيرة الدافئة بأثاثها الأزرق ، صرنا أربعة في الغرفة الزرقاء ، أخته تقابلني وهو يواجهه أمه ، وعلى المناضد الصغيرة التي أمامنا استيقظت رائحة الشاي من الأكواب الساخنة، مثلما استيقظت عيوننا على نظرات داكنة وفاترة لبعضنا البعض، نظرات لم أشعر بها تفترسني وتتطفل عليّ بل تحدق بي وكأنني توأم له اعتادت على الألفة معه ، توأم لا أشبه في شيء ، على الإطلاق ولكن ربما ثمة هنا يسحبي إلى ظلال التآلف لهذه العائلة التي أتعرف على ملامحها لأول مرة ، وكأنه لم يتوقف عن استجوابي كضابط تحقيق آخر ، قرب قدحه من شفته السفلى ودون أن يشرب ركز بوجهي وكأنه يريد اختراقه :

- إذن ما الذي جاء بك إلى مركز شرطة الوحدة ؟

- في الحقيقة كنت أسكن في الثورة سابقا وكان سبب استدعائي للشرطة أن لي جاراً اشتكى على مدعى أن كليّ أكل الدجاجة السبعة جميعهنّ وبعد أن طالبني بالتعويض فلم أعطه اشتكى على ، لكنني لا أملك كلباً وقد أخبرت الضابط بذلك، فادّعى جاري بأن كليّ قد هرب بعد أن تعشى بوجبة دسمة للغاية، فقضيت ليلة مشبعة بالبعوض ورائحة البول الطازج قرّرت بعدهما مغادرة الثورة بلا رجعة .

- مسكين يا يمة .

سكبت السيِّدة الكبيرة تعاطفها بنبرة شجيَّة ، وأرادت السيِّدة الصَّغيرة أن تغوص في حكايتي وهي تحيطني بعيون قطَّة بيضاء :

- وهل جارك حاقِد أم متوهَّم ؟

- لا هذا ولا ذاك ، إنَّه مجنون .

- وكيف صدقته الشرطة ؟

- هذه هي المشكلة ، يبدو أنَّهم مجانيِّن أيضا فحتَّى لو كان لي كلبا ،

فهل يعقل أن يأكل كلب لوحده سبعة دجاجات ؟

- سخافة .

علق هو أخيرا مثل خيط توتر فجأة بيني وبينها ثمَّ تراخى :

- سبب تافه مثلي تماما ، ليلتها وصلني تبليغ من الشرطة بالحضور ،

فوجدت أمامي إنذارا يهدم سياج بيتنا الخارجي ودفع غرامة نقدية لأنني

متجاوز على الحدود والمسافات العاتمة كما يدعون فدفعت الغرامة وعدت

وهدمت السياج بعصية واقتلعت أزهار وأشجار الحديقة التي من أجلها

بنيت السياج ، حياتنا متعلِّقة بأسباب تافهة أليس كذلك ؟

جرفني إلى حكايته وكأنَّني أدخل دهبليزا مظلمة فأحسست بأنَّ الزمَن

يسرق مني ثلاثين سنة وليس نصف ساعة تلاشيت فيها مع هذه العائلة

الشفافة الأفق استأذنت وقد ألح قلبي برغبة حادة أن أتركه بين يدي

السيِّدة الصغيرة أو أخذها معي لتركض تحت المطر :

- انتظر ريثما يتوقَّف المطر عن الهطول .

لم أعرف من رجائي وكأنَّهم خاطبوني بصوت واحد ، وعبونهم الستة

لزجة تريد أن تعلق بي :

- لا بهم ، لقد علمني أن لا أعبأ به ..

قبل الخروج على الجدار المجاور للباب الداخلي كانت هناك سفينة في

محيط متلاطم تحيطها إطارات لوحة لم أبصرها بوضوح وخرجت سريعا ،

طيلة ثلاثة أسابيع كنت أدور في حلقة مفرغة من التردّد والحُجَل بأنَّ أطرق

بابهم وأدخل من جديد لأطلب منهم شيئا مهمًّا نبت في إرادتي لأكون

غصنا في شجرتهم أو أقطع من شجرتهم غصنا ، وفي مساء خميس
بكت سماؤه دموعا كثيرة كليتها تماما ، طرقت الباب وكنت أشبه
بغيمة تطر على عتبتهم فقط ، انفرج الباب عن السيِّدة الكبيرة وهي
ترتجف وحين أبصرتي سرى في دمه دف ، هادئ لون وجهها الفاتر
بيريق بزغ في عينيها الناعمتين :

- أهلا يمة تفضل !

في الغرفة التي بدت أكثر زرقة كانت السيِّدة الصَّغيرة جالسة
ويدها ورقة ركنتها على الطاولة ونهضت لاستقبالي ، لم تفح منها
رائحة الصابون الزكيَّة بل رائحة ثوب عتيق لم تلبسه منذ ثلاث
سنوات ، جلسنا وبدت رحلة عيونها تبحث عن أسئلة ومرافئ للدخول ،
وكانت الأم أكثر إغالا وغورا بنظراتها نخوي وكأنَّها عثرت على
البديل ، بررت زيارتي بتلعثم وأنا أقدم أصابعي إلى المدفأة التي
قربتها لي السيِّدة الصَّغيرة :

- لقد زاحمني المطر فأثرت أن التجأ إليكم .

احترق الصَّمْت بيننا وهو يسقط في المدفأة الحمراء ، فأسرعت
لالتقاطه :

- أين هو ، لا يبدو أنَّه يوجد في البيت ؟

حدقت بابتها وكأنَّها تحاول إخراج شيء مدفون لا زالت رائحة تفسخه
حادَّة ، أو مات بطمأنينة نخوي ، فنهضت وناولتني الورقة ألقتها على
الطاولة :

- << يجب أن أرحل أن أسافر ، حياتنا ليس لها معنى ، وأيامنا كلُّها
فارغة ولا نستطيع أن نغلاها بشيء ، يستحق ، لذا قررت أن أبحث
عن أيام أخرى في أماكن لم تظوها قدماي ولم تدوسها ذاكرتي من
قبل ، حياتنا متعلقة بأسباب تافهة أليس كذلك >> ؟

- نعم .

علقت على سؤاله مع نفسي ورأيت العيون الأربعة التي أمامي حائرة

وحزينة :

. يبدو أنه كان يمرّ بأزمة ؟

. تركنا وهاجر إلى الخارج .

بأسى تحدثت أمّه وأكملت اخته بإيضاح :

. كان يحبّ فتاة تزوّجت من غيره ، فقرّر السفر .

وكأنّني تدرجت من قمّة جبل وتكسرت كلّ عظام إرادتي وقراري

الهام وسقطت في مستنقع من الزمن السيّء غير الملائم لطبلي منهم ،

شعرت الأمّ بحيرتي الشديدة وبدت لي مثل ابنها الغائب تقرأ الأفكار

:

. نعم لكن الوقت غير ملائم .

. لا يهمّ عليك أن تسير تحت المطر دائما ولا تنزوي بعيدا عنه .

. أريد الزواج من ابنتك ؟

. خفّا نحن بحاجة إلى رجل يشبه ابننا تماما لكن هذا الأمر يحتاج إلى

مشاورة ، بعد غد سنعطيك الجواب .

التفتت التوكّذ كلامها لابنتها التي أطرقت بخجل وبدأت تصغر

في كرسبها حتى أصبح عمرها خمس سنوات ، وخمنت الآن أنّها لو

تملك ألف باب لفتحتها كلّها أمامي ، فانتشبت مثل فراشة عشرت

على زهرتها المفضلة ، ونهضت لأستعجل مجيئ يومين قادمين متمنيا

لو أنّ الأيّام مجردة رزنامة فقط بالإمكان شطب أرقامها كيف اشاء ،

إلى اليسار قبل أن أغادر وقفت مرّة أخرى أمام لوحة السفينة كان

نصفها غارقا والبحر تتلاطم أمواجه حولها بفعل عاصفة هوجاء ،

ويدا لي أنّ الرسام لم يكمل عمله ، وظللت لسنوات بعد أن تزوّجتها

وتوفيت أمّها أنظر إلى اللوحة وانتظر غرق السفينة كلّها وعودته أو

رسالة أخرى منه ...

جموح الكتابة ... ورغبة التأصيل

تلقت أسرة التحرير في مجلة . الإنحاف . الغراء .. ضمن مايرد عليها من يريد قرأها داخل الوطن وخارجه رسالة من السيد : إبراهيم الحميدي القاطن بضاحية باردو بالعاصمة و أصيل جهة مارث من ولاية فابس .. وهي تحمل في طياتها نبذة عن امتدادات نسل أرومته التي تنزع إلى نسب شريف . حسب قوله . يدلي إلى سلالة عترة آل البيت ...

وكانت الديباجة التالية تتضمن التأصيل المتتابع حسب الرواية التاريخية لنسب سيدي يحيى الشريف . الجد الأعلى . لصاحب الرسالة والذي يدلي بالنسب مرفوعاً لآل النبي (ص).



<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

أصل سيدي يحيى الشريف بن علي الحمروني



هو يحيى ابن علي ابن محمد الرحمان ابن جابر ابن حمدون ابن
ابراهيم ابن محمد الله ابن بو عنان ابن الفضيل ابن عبد الحريم ابن عبد
السلام ابن هشيش ابن بلقاسم ابن مروان ابن احمد ابن احريس الاصغر
ابن احريس الاكبر ابن محمد الله ابن محمد ابن الحسن المثنى ابن
الحسن السبطي ابن علي ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ قدم من
الساقية الحمراء، وتوفي سنة 1010 هـ هجري بعراء من معتمدية مارث

ضمن هذا السياق تشمن حرارة الانتماء لدى صاحب الرسالة وأحد مردي
الإتحاف . وذلك الجهد المعرفي نحو فرزحات هذا العقد وإثبات نقاء الجذوع والفروع
لهذه الشجرة الممتدة في رحم عرش الحضارة المتفرغ من صلب الولي الصالح سيدي
يحي الشريف بن علي الحمروني ... الذي استوطن تاريخياً جهة مارت ويطل مقامه
شاهدا على عراقه نسبه وأصاله انتمائه ونقاء جذوره....

وإننا إذ نوثر أولياءنا الصالحين باعتبارهم أعلامنا التاريخيين فهم دلالة مد
الانتماء وصفاء الهوية وهم الذكرة الحية التي تهفوا إليهم الأئدة ويحتشد عندها .
في احتفالية . العقل الجمعي المسلم في بلادنا .. وإذ نقر بالحقيقة العلمية
والتاريخية التي لا تعثرها الشك بأصالة بعض العروش أو العائلات والبطون
القبلية التونسية والتي تدلي بانتسابها العربي إلى نبي هذه الأمة : محمد بن عبد
الله ... سواء باعتبار هجراتها الطبيعية خلال القرون الماضية .. أو إنطلاقاً من
زمن الفتوحات الإسلامية منذ 32هـ مع العبادة السبعة ومع عقبة بني نافع وحسان
بن النعمان وغيرهم .. ممن تواتروا على إفريقية في كل ركب ضم اليميني
والقرشيين ومن بطون حجازية متعبدة وانصهروا مع البربر وغيرهم ليشكلوا النواة
الصلبة المستوطنة ببلادنا في تشابه تمتدقروعه في كامل المغرب العربي ...

وإذ نقر ذلك من استنطاقنا لتاريخنا ... نؤكد على لسان المختصين :
أولاً: بأن تاريخ الأنساب منحول غير نقي باعتبار التمازج والتزاوج الطبيعي
والضروي الذي حصل إبّان الفتوحات أو الاختراقات وأشكال الاجتياح . حتى
الصليبي منها . التي شهدتها أرض إفريقية خاصة منذ أواخر القرن الحادي عشر
للميلاد ...

ثانياً : يندر أن نجد كتابات متخصصة في « علم الرجال » وتاريخ القبائل التونسية
... وتطل بعض المحاولات جزئية تقتات في غالبها من كتب التراث التي تتباين
في قيمتها المعرفية ... أمثلة : كتاب العبر .. للعلامة بن خلدون في أجزائه الأولى
خاصة .. وأنساب البلاذري والطبقات الكبرى لابن سعد وغيرها .. ولا نعثر في

المكتبة التونسية على مراجع أكاديمية حديثة ومتحضرة أساسا في مسح تاريخي وإسمي .. لما يمكن أن نسميه « الجذور النسبية .. لشجرة العائلة التونسية » ...

ثالثا : إن البحث التاريخي الأكاديمي « لا يقاضي » أي ادعاء في التاريخ ضمن محك الاختبار العلمي بوصف أنها قراءة بريئة أو مشبوهة ... بل بوصف مدى مطابقتها للموضوعية في البحث التاريخي رغم أن التاريخ لا يخلو من الذاتية ...

رابعا : إن الشرف - مهما نزع في علوته لنطفة النبوة - تطلّ قيمته إعتبارية في منظومة تواصلنا وفعلنا الحضاري داخل أمتنا العربية الإسلامية .. وفي علاقتنا بالآخر .. من الذين يقفون على أرضية عقائدية مخالفة .. لأن الفرز التاريخي وحسب قراءة علمية لعالم الأنثروبولوجيا الإيراني - على شريعتي - يتم إنسانياً على أساس « الولاء القبائلي أو الهابيلي » لا على قاعدة العنصر بل على قاعدة التفاضل بين قوى الخير وقوى الشر ..

خامسا : إن الحضارة الإنسانية اليوم .. وكل الخطابات السّماوية التي تتابعت تاريخياً مقدّسة تقطع مع نقاء الدّم ... ومع أن عنصرا نقياً ...!! والآخر أمشاجا .. « فكلكم لأدم وآدم من تراب .. » وفي هذا المضمار يجيء الخطاب الحمدي حاسما في استيعاب كلّ التنوّع الإثني والعرقي واللّوني للمسلمين في قوله : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم .. »

وختاما : تشمّن الإنحاف - محاولة السيّد ابراهيم الحميدي في التّشّس في جدار المسكوت عنه حتّى يدفع بمن يجترئ من الجامعيين التّونسيين أساسا للولوج لمنطقة الفراغ في البحث التاريخي التّونسي ... ونحن نجلّ كلّ إنتساب لعثرة النبوة المصطفاة ... وذلك ضمن سياق البحث التاريخي الجاد .
ضمن قاعدة الإضافة والإثراء لا على قاعدة الإعلاء .

التحرير